وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

فقه اللغة العربية المقارن

تأليف
الدكتور زكي المحاسني
أستاذ الأدب العربي بجامعتي دمشق ولبنان
عضو المجمع الملكي الاسباني ببرشلونة
عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



فقه اللغة العربية المقارن


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

فقه اللغة العربية المقارن

تأليف

الدكتور زكي المحاسني

أستاذ الأدب العربي بجامعتي دمشق ولبنان
عضو المجمع الملكي الأسباني ببرشلونة
عضو مراسل في مجمع اللغة العربية في القاهرة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٨

الدكتور زكي المحاسني ١٩٠٩- ١٩٧٢

أديب وشاعر وناقد أدبي ومسرحي

ولد في دمشق عام ١٩٠٩، والده شكري المحاسني كان كاتباً في المحكمة الشرعية بدمشق. توفي والده وكان عمر زكي سنتين. فربته والدته السيدة سارة البحري وكانت سيدة فاضلة وتقية. بكفالة عمه تلقى زكي دراسته الأولى في مكتب عنبر ونجح إلى الصف الثاني عشر وقدم امتحان البكالوريا سنة ١٩٢٨ وكانت أول بكالوريا يطبق نظامها في سورية.

التحق بكلية الحقوق بدمشق وحصل على الإجازة سنة ١٩٣٦ وكان عمره اثنتين وعشرين سنة وفي السنة نفسها نال أيضاً شهادة الآداب من الجامعة السورية. تابع تحصيله العلمي في الجامعة المصرية بالقاهرة ونال شهادة الماجستير وكانت أطروحته بعنوان «أبو العلاء المعري ناقد المجتمع» ثم التحق بجامعة فؤاد الأول ونال شهادة الدكتوراه بتقدير جيد جداً وكانت أطروحته بعنوان «شعر الحرب في أدب العرب» سنة ١٩٤٧ وكان أول سوري حصل على شهادة دكتوراه دولة في الآداب. بدأ حياته العملية في تدريس اللغة العربية وآدابها في التجهيز بأنطاكية سنة ١٩٣٢ ثم في تجهيز البنين بدمشق سنة ١٩٥٣ وبقي يعمل في التدريس الثانوي حتى عيّن أستاذاً مساعداً في كلية الآداب بجامعة دمشق في ١٩٤٧/١٢/٩ ثم عين ملحقاً ثقافياً في السفارة السورية بالقاهرة سنة ١٩٥٢ ومندوباً في الجامعة العربية للشؤون الثقافية.

عاد إلى دمشق سنة ١٩٥٦ وانتدب في عهد الوحدة للعمل في لجنة التربية والتعليم بوزارة التربية ثم شغل منصب مدير دائرة التراث القديم والمخطوطات بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٥. وأوفد أستاذاً معاراً إلى الجامعة السعودية في قسم اللغة العربية لمدة عامين ١٩٦٥ و ١٩٦٦. ثم عمل أستاذاً في الجامعة اللبنانية حتى سنة ١٩٦٩، ثم عين عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٧٢ وانتخب عضواً مراسلاً في المجمع الملكي الإسباني في إسبانيا سنة ١٩٧٠ وقد رشحه لهذا المنصب الأديب الإسباني الكبير (رامون ميندث بيدال) لاهتمامه بالدراسات الأدبية وإسهامه في الأدب الأندلسي.

تزوج الدكتور زكي المحاسني بالأديبة الكبيرة وداد سكاكيني عام ١٩٣٣ المولودة في صيدا بلبنان (١٩١٣-١٩٩١) وكانت آنذاك تعمل مدرّسة في كلية المقاصد الإسلامية في بيروت. أنجبت له ابنه ذكوان وابنتين هما ذكاء وسماء.

أقام مع زوجته في مصر مدة طويلة وتوطدت صداقتهما مع عدد كبير من الأدباء والشعراء في القاهرة منهم توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد وطه حسين وشوقي ضيف ووديع فلسطين ومحمد عبد الغني حسن وغيرهم.

وفاته: توفي زكي المحاسني يوم الخميس في الثالث والعشرين من شهر آذار ١٩٧٢ عن عمر ناهز الثلاثة والستين فرثاه كل من الشعراء رشاد علي أديب وحسين أحمد كمونة وعبد الخالق فريد وغيرهم. وعبرت المستشرقة الألمانية (آنّا ماري شيمل) أستاذة الدراسات العربية والإسلامية في جامعة بون عن أسفها لفقده وقد عرفته من خلال كتاباته التي نشرت في مجلة (فكر وفن) وكانت ترأس تحريرها ومما جاء في برقية تعزيتها «هناك أصدقاء لم نلتق بهم ومع ذلك فهم أقرب إلى تفكيرنا وشعورنا من أولئك الذين عرفناهم والتقيناهم يوماً بعد يوم وكان الدكتور المحاسني من هؤلاء الذين عرفناهم في آثارهم دون التقاء. بعد وفاته قررت محافظة دمشق تسمية الساحة المجاورة لجامع الإيمان في حي المزرعة باسم الدكتور زكي المحاسني تقديراً لعلمه وفضله على الجيل كأديب ومربٍّ.

وبمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاته جمعت زوجته الأديبة وداد سكاكيني مقالات وقصائد بأقلام الذين عرفوه في أدبه ونضاله ونشرت في كتاب بعنوان «تحية وذكرى الدكتور زكي المحاسني» سنة ١٩٧٣، ساهم فيه طائفة من الأدباء في سورية ولبنان ومصر والعراق.

وصدر عن حياته ومؤلفاته كتاب من إعداد ابنته سماء بعنوان «زكي المحاسني المربي الأديب والشاعر الناقد»، ونشرته دار القلم بدمشق في العام ٢٠٠٤، ضمن سلسلة علماء ومفكرون معاصرون، ٢٣.

وكتابه «فقه اللغة» دراسة قيمة في فقه اللغة العربية تناول فيها آراء اللغويين العرب في اللغة العربية، وقدم بحثاً تفصيلياً عن علم اللسان عند العرب في الفصل الثاني.

وبحث في فصل آخر في علم الأصوات اللغوية وخصص الفصل الخامس للحديث عن اللغة العربية واللهجات، فبدأ بالبحث حول أصول اللغة العربية ووجد أن دراسة اللهجات العربية كمدخل لدراسة أصول اللغة العربية، كما أن دراسة اللغات السامية برأيه تعيننا على أن نضع اللغة العربية في مكانها. كما عُني الدكتور المحاسني بالمقارنة بين اللغات فهي عون كبير لإظهار مزايا كل لغة على حدة بحيث يتوصل الباحث إلى تمديد الصلات بين اللغات.

ويشمل بحث د. المحاسني حول هذا الموضوع تقسيم هذه اللغات وتفرعها وخواصها وقد أورد آراء العلماء في هذا ومن أبرزهم المستشرق الإيطالي (غويدي) وغيره وفند آراء هؤلاء العلماء.

وقد كان المؤلف د. المحاسني متمسكاً باللغة العربية الفصحى ومعتزاً بها وكان لديه إلمام واهتمام كبير بدراسات اللغة العربية والدراسات المقارنة بين أدبنا العربي والآداب العالمية، وكانت له محاضرات عديدة في الجامعات العربية في اللغة العربية والمعاجم العربية.

إن كتاب «فقه اللغة العربية» يعدّ من أبرز الدراسات التي تناولت أهم الجوانب والقضايا في لغة الضاد.

يوسف عبد الأحد

الفصل الأول
فقه اللغة

١ ـ المفهوم من كلمتي الفقه واللغة في علم اللسان :

يتفق واضعو المعاجم العربية على تعريف الفقه أنه : العلم بالشيء والفهم له والفطنة، والفقيه عندهم هو الموصوف بالعلم والفهم والفطنة . فاذا قلّبوا أوجه هذا اللفظ قالوا : فقه الشيء كعلمه ، وتفقهه كتعلّمه . وإذا شاؤوا حملاً على التعدية قالوا : فقّهه الشيء : علّمه إياه ، وإذا أشركوا اثنين في اداء الفقه قالوا : فاقهه ، أي باحثه في العلم . وحين يحدثون المباراة بين فقيه وآخر وتكون الغلبة لأحدهما على الثاني يقولون : فقهه أي غلبه في الفقه . وكيف دار أمرهم في اداء المعنى المراد لهذه الكلمة في معاجمهم فانهم كانوا يغلّبونها على علوم الدين.

والفقه في اصطلاح علماء العربية قد لا يعدو معناه عند اللغويين من العرب فان موفق الدين بن يعيش النحوي المتوفي سنة ٦٤٣ حين شرح المفصل للزمخشري عالج معنى هذه الكلمة التي أوردها الزمخشري في مقدمة كتابه حين قال : « المراد بالعلوم الاسلامية الفقه وأصول الدين والأخبار عن الرسول (ص) وعلوم الكتاب العزيز». والفقه

يشتمل على علم الكتاب والسنة.

وحين قدَّم أبو منصور الثعالبي[1] لكتابه « فقه اللغة وسرّ العربية » الذي ألّفه تقرباً إلى أبي الفضل الميكالي، كان من قوله: « معرفة العربية والاقبال على تفهمها مفتاح التفقه في الدين. وان التبحّر في جلائل اللغة ودقائقها يزيد قوة اليقين في معرفة اعجاز القرآن » وحق له أن يقول ذلك إذ كانت اللغة العربية منبثقة من نور القرآن الكريم في علومها ودراستها والاطلاع على اسرارها والإلمام بفقهها إذ أن القرآن الكريم كتاب الدين وسجل الفصحى». ثم قال: «وإنَّ من أحبَّ الأدب وتعصَّب للعربية جمع شمل اللغة وكرَّم أهلها واستدعى التأليفات البارعة في تجديد ما عفا من رسوم طرائفها ولطائفها ». على أنه حين وضع كتابه هذا جعله دواراً على الأسماء، حواماً على المعاني والمترادف والمتشابه الى ذلك من فنون القول في كل ما يعرض للموصوفات. ولسوف أعرض لتحليل كتابه هذا عند الكلام على الكتب التي ألَّفها أوائلنا في فقه اللغة، فكان كتابه فقهاً للمسميات اللغوية ومعرفة معانيها ونظائرها، وإيراداً للأشباه في متفاوت الصيغ والتراكيب.

لكن صاحب « المزهر » جلال الدين السيوطي وهو من المتأخرين[2] كان اكثر توفقاً في التأليف اللغوي حسب المناهج العلمية فجعل كتابه في فقه اللغة وعلمها متناولاً لما ينبغي ممارسته في هذا العلم من المؤتلف والمختلف في اللغة والمروي الصحيح والمروي المشكوك في روايته وفي معرفة الفصيح والضعيف والمنكر والمتروك وبيان المطرد والشاذ ودراسة الاختلاف في اللغات وتدخلها وتوافقها والبحث في الألفاظ الاسلامية والمولدة وأشباه ذلك وسأعرض لتحليل هذا الكتاب أيضاً فيما يأتي من محاضرات هذه الدروس اللغوية.

---

(١) وفاة أبي منصور الثعالبي صاحب اليتيمة سنة ٤١٩ للهجرة.

(٢) توفي سنة ٩١١ للهجرة.

والـذي يفهم من فقه اللغـة بحسب مصـطلح الـدراسـات الغـربيـة السائدة في الجامعات ان فقه اللغة المسمّى PHILOLOGIE اسم مصدره لاتيني ومعناه PHILOS أي صديق و LOGOS أي خـطبة . فيكـون أصل معناه وصفاً لمحب البحث في الخطب . والمقصود بـالخطب في الآداب العتيقة الفصاحة والبيان اللغـوي . لكن علماء الفـرنجة على مـا جاء في تعريف فقه اللغـة في المعاجم الفـرنسية يصفـونه بـأنه علم يـوجه الآثـار الأدبية واللغة توجيهاً علمياً قوامه نقد النصوص من الوجهة الأدبية واللغوية والنحوية . وهو يتناول في نطاقه علم الحياة الثقافيـة والاجتماعيـة والفنية لشعب أو لعـدة شعـوب . وإذا شئنـا البحث فيمـا وصـل الينـا من كتب الأوائـل في اللغة وفقههـا لم نجدهـا مستجمعة لهـذه الشروط كلهـا التي يشتـرطها علمـاء الغرب في فقـه اللغة فـإذا احببنا ان ننصـرف قليـلاً عن الكلام في مفهوم كلمة الفقه لنعرف ما يراد بكلمة اللغة ، لزمتنـا الرجعـة إلى مقـولات أهل لغتنـا في معاجمهم ، فهم كـذلـك مجمعـون على أن يصفوا اللغة بأنها « أصوات يعبر بها كل قـوم عن اغراضهم » ويجمعـونها على لغـات ولغـون ولغى . والنسبـة اليهـا لغـوي . وهي عنـدهم بمعنى اللسان ، وكان اللسان الأداة المخلوقة في أفواهنا لأداء اللغة ، وقد عرَّفها جماعة من اللغـويين بأنهـا الكلام المصـطلح عليه بين كـل قبيل ، وقـال آخرون : انها الألفـاظ الموضـوعة للمعـاني ، واندفعـوا عنـد هذا القـول يتكلمون على طريقتهم في شرح كل لفظة ترد في التعـريف ليتم مفهومـه عندهم بعد هذا الشرح ، فقالوا : والأصوات جمع صوت وهو الجرس ، فإذا احبوا الاستشهاد على لفظ الصوت من كـلام العرب القـدامىٰ أوردوا هذا الشاهد :

يـا أيها الـرجـل المـزجي مـطيتـه سـائل بن أسـد مـا هـذه الصـوت

ويعتـرضهم ان الصـوت أتى في هـذا الشـأن مؤنثـاً . وهـو لـديهم مـذكر ، فيلتمسـون له وجهـاً ويقـولـون أراد الشـاعـر حين أنث الصـوت الضوضاء والجلبة وهي مؤنثة . والصـوت عندهم أعم من النـطق والكلام

وشاهدهم على ذلك ان الصوت يطلق على كل صائت . فهو في قول جرير:

لما تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

وقد يدعوهم هذا الى ان يفيضوا قولاً في اللفظ وان يردوه الى اصله اللغوي من لفظ الشيء إذا طرحه ، والكلام مطروح من الفهم فهو لفظ . إنه مصدر بمعنى المفعول استعمل اسماً كالخلق بمعنى المخلوق . ويخرجون من ذلك الى أنَّ الذي اشتهر في عرف اللغة من اللفظ هو المفيد.

وأصل اللغة عند أبي نصر الجوهري صاحب معجم الصحاح : لغي أو لغو حذفت الياء أو الواو وعوض عنها الهاء أو أصلها لغوة من لغا يلغو إذا تكلم فحذفت الواو تخفيفاً وضم أول الكلمة والاستقراء يعين على هذا الرأي فان الواو محذوفة من اصل أخ وأب وسنة .

أما اللغة في مصطلح الفرنسية فهي من اللاتينية Lingua ومعناها اللسان أيضاً وكلمة Langue تفيد مفهوميها اللغة ولسان الفم معاً أما كلمة Idiôma اليونانيَة فمعناها لسان اللغة فحسب . ولذلك فان الفرنسيين حين يستعملون في لغتهم كلمة idiome فللغة وطن من الأوطان أو شعب من الشعوب . وقد تتناول عندهم لغة صقع من الأصقاع كلغة لانكدوق Languedoc والبروفانس . ويفهمون من هذه الكلمة معاني تتعلق باللغة المتداولة في الأمة Langue matexnelle ويطلقون على مجموعة الاصطلاحات الكلامية في الطبقة الشعبية والأحياء الأمية ولغة الشوارع Langue Verte اللغة الغثة . وطبيعي ان تقسم الأمم الغربية اللغة الى لغة حية Langue vivante ويقصدون بذلك اللغات الأوروبية الراقية واللغة العربية ، ولغة ميتة Langue morte كاللغة الهيلينية القديمة التي كانت تقال في اليونان واللغة اللاتينية واللغات السامية القديمة كالسريانية والعبرانية .

٢ ـ مظاهر اللغة وأصولها التاريخية :

يعنى علماء الفلسفة باللغة ويعدونها مظهراً من مظاهر الحياة النفسية . فاللغة في نظر الفلسفة وعلم النفس مجموعة اشارات جدواها ان تعرب عن الفكر وأن تؤديها إلى علم الآخرين . وأداتها في ذلك الألفاظ المتكلمة والحروف المكتوبة . فالاشارة التي منها تتألف دلالة اللغة هي كل فعل محسوس خاص يهيم في خواطرنا فعلاً آخر لا نراه إبان ذلك الهياج في نفوسنا . ويضرب الأب توماس على ذلك مثلاً عند بحثه في علم النفس(١) ، ان الدخان الذي يراه من نافذة بيته هو إشارة إلى النار التي لا يراها ، وان الضحك الذي احس به بالنظر أو السمع هو اشارة للفرح الذي لا يستطيع ان يلم به بالأحاسيس . لكي يكون عمل اشارة لعمل آخر ينبغي للذهن ان يعقد بينهما علاقة مصطلحة عليها . فحين يحدث أثر على الأول يظهر مفهوم هذا الأثر في الآخر . ولولا هذه العلاقة لما كان لدينا الدخان اشارة للنار ولا الضحك إشارة للفرح والسرور.

وعند المرء الذي تكاملت أحاسيسه تكون الاشارات المتداولة لديه ، المعروفة مظاهرها ودواعيها هي التي تتبين الألوان والحجوم والحركات وإشارات السمع التي تحتوي الأصوات . ونستطيع وصف هذه العلاقة بين الاشارة ومفهومها انها صلة بين المادي والمعنوي . فالاشارة مادية والذي تهيجه في مفهومنا أمر معنوي .

وعلى ذلك فاللغة مجموعة اشارات مادية في اللفظ والخط ، تهيج في الأفهام المعاني التي ترتبط بهذه الاشارات . وثمة اشارات قد اتفق عليها وليست لها خطورة الاشارات اللغوية . فحرف (س) الذي يشير إلى المجهول ويستعمله الرياضيون في جملة رموزهم الجبرية ما كان

---

(١) Philosophie du pêre F.Tomas. édition Alcan. Paris, 1926.P 299.

يكون بينه وبين المجهول أقل علاقة لولا الاتفاق عليه في مصطلح الجبر.

ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن الصلة التي بين الاشارة الموسيقية ورمزها والحروف الاصطلاحية التي يتفق عليها الديبلوماسيون في مخابراتهم المكتومة. ويكفي لفتح هذا الباب أن نملك المفتاح.

لكن القضية يشتد تعقدها حين نعالج مشكلة الاشارات الصوتية التي تتعلق باللغة، فمن أبهىٰ حضارات الانسانية هذه اللغة التي يتكلم بها كل قوم فيما بينهم فيفيدون معانيها، ويفهمون ألفاظها وقد حملت اللغة الفلاسفة واللغويين على أن يبحثوا عن منابعها الأولى وأدت ابحاثهم الى فروض عديدة يمكن اجمالها بأربعة مذاهب:

○ **فالمذهب الأول**: في تكوين اللغة، ان اللغة كانت باتفاق إنساني مجرد من العوامل.

○ **والمذهب الثاني**: ان اللغة حدثت بإلهام مما فوق طوق البشر.

ويراد بهذا المذهب الإلهام الرباني. وأجد القرآن الكريم قائلاً به في قوله (تعالى): ﴿**خلق الإنسان علمه البيان**﴾ [الرحمن: ٣، ٤] وقوله (تعالى): ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ [البقرة: ٣١].

○ **والمذهب الثالث**: ان الانسان توصل الى ابتكار اللغة بدوافع الغريزة.

○ **والمذهب الرابع**: ان الانسان دأب دأباً متواصلاً فشذب اللغة الطبيعية حتى بلغت دقتها العلمية ويقصد باللغة الطبيعية الأصوات التي تداولها الانسان الأول في غير نسق أو ترتيب وبدون ان يكون لهذه اللغة جموع ومفردات ومذكر ومؤنث وما الى ذلك من شأن اللغة المترقية.

وكان القائل بالرأي الأول، بأن اللغة كانت اتفاقاً هو «هيرموجين اليوناني Hermogène» الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد. وفي

الفلسفة الحديثة اعتنق هذا الرأي لوك Locke الانكليزي الذي كان يفي بدراسات عن الرقي الانساني وقد عاش في القرن السابع عشر . وهذا أيضاً رأي آدم سميث Adam Smith الاقتصادي الايقوسي الذي عاش في القرن الثالث عشر . وهو رأي نستطيع أن ندعه بغير مناقشة لأننا لا يسهل علينا التسليم به إذا علمنا ان اللغة لا تحدث فجأة إذ لا بدَّ لتكاملها من سوابق . وههنا اجد مجالاً للرد على أرنست رينان إذ كان من مشهور آرائه في لغة الغرب انها ولدت فجأة ولادة متكاملة . وكان يظهر عجبه لهذه الصفة التي اتصف بها الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية . فكأن ارنست رينان نسي أن في محتوم العلم الذي ساد في القرن التاسع عشر وهو عصره قضية النشوء والارتقاء ، وان لغات البشر كافة لم تبدأ متكاملة ، وانما طرأ عليها من النشوء والترقي ما جعلها تخرج من النقص الى التكامل وانه لا ينبغي للغة العرب أن تشذ عن هذا السبيل .

أما الفرض الثاني فقد كان من المنافحين عنه افلاطون في محاوراته المسماة « كراتيل Cratyle » التي أدارها بين الفلاسفة حول اصل اللغة في القرن الرابع قبل المسيح . وأخذ بهذا الفرض «دو بونالد de Bonalde » في القرن التاسع عشر وهو يعتمد على ان الانسان اعجز من أن يبدع هذا التكامل اللغوي . فاللغة إذن من صنع الله ، قد اعطاها الإله الانسان حين خلقه على هذه الأرض .

وأما المقولة الثالثة والرابعة للمستشرق الانكليزي ماكس موللر Max Müller من أهل العصر الماضي . فموللر يقول انه ينبغي علينا ان نميز في كل لغة عنصرين كبيرين . الأول : الأمور الموضوعية ، والثانية : الأمور المشكلية كجذور الكلمات Racines ومزيداتها في الابتداء والانتهاء affixes وطرائق تألفها . والجذور نوعان ، جذور وصفية تفيد في كل التراكيب التي تدخل فيها صفة واحدة معروفة ، وتثير ادراكاً معهوداً بعينه . وجذور دلالية ، أقل عدداً من تلك ، تعبر عن

ارتباط الجذر الوصفي بالصورة المراد قولها أو العمل المطلوب اجراؤه ويشرح موللر نظريته بأن يقول :

« حين نحلل أسراً مختلفة من اللغات نجد أن هذه اللغات تحوي على ما يقرب من خمسمائة عنصر عام نعبر عن كل عنصر بأنه جذر من الجذور وهي نماذج صوتية حاصلة بقدرة متلاحمة مع العقل البشري. ويرى موللر ان الاناسي الأول لم يكونوا يملكون القدرة على التعبير عن خواطرهم وأحاسيسهم بالصراخ فحسب ، وانما كانوا يملكون الى ذلك القدرة على أن يلبسوا التعابير نبرات حسبما يعوزها لكي تصبح مدركة مفهومة وان هذه المنحة اللغوية لم تكن إلاّ بواسطة الغريزة.

وسوى الجذور نجد ابداع الكلمات المركبة وطرق تجمعها وعلماء اللغات البشرية يضعون ثلاثة أدوار لتكوّن كل لغة :

○ **الدور الأول** : دوّر الجذور ويقابلها في لغتنا العربية جذور المجرّدات وكانت هذه الجذور تستعمل في هذا الدور على انها كلمات ، وكانت اللغات في ذلك الحين ذوات مقطع واحد Monosyllabique كاللغة الصينية العتيقة.

○ **والدور الثاني** : دور الاتحاد بين جذرين فأكثر وفي هذا الدور يظل جذر واحد متداولاً على أنه الأسّ في الكلمات . ويبدو التبدل والتغير في بعض الجذور الأخرى، ولغة هذا العهد تسمى اللغة الملتحمة كاللغة الطورانية التي كان يتكلم بها في آسيا الغربية بين سيبريا وبلاد الأفغان وعلى ضفاف بحر قزوين.

○ **والدور الثالث**: دور اللغة اللّينة وفيها يبدو الجذر منضماً الى جذر آخر كاللغات الهندية ـ الأوروبية.

وكيف اتفق الأمر فان شروح ماكس موللر لتكون اللغات شروح لا يزال الظمأ غير منقوع عندها لأنها ترتكز على الغريزة ، والغريزة نفسها ما

تزال الى اليوم غير قابلة للتوضيح .

على أننا لدن تحليل اللغات الانسانية المعاصرة المعروفة التي تبلغ تسعمائة لغة نجد الجذور بعينها عامة فيها ، ومن علماء اللغة المتأخرين من يقول ليست هذه الجذور هي أساس الكلام في هذه اللغات وانما هي بقايا لغات سوالف اضمحلت في كلام الانسان الخالي بعد أن باد أهلوها.

والذي عليه البحث العلمي أن خلق اللغة في جذورها وادراكها المجرد مستعص على الانسان ان يخترعه اختراع الفجأة وان الذي يمكن الركون اليه هو التطور اللغوي لكل لغة حية ومشاهدة ساذجة نشاهد فيها طفلاً تحملنا عند سماع لغته على استقرائها ومعاودة سماعه ومشاهدته حيناً من الزمن تدلنا دلالة واضحة على التطور اللغوي الذي يحدث في كلامه . وبدراسة لغة طفل ، لا نرى عنده كلاماً شاملاً وانما نجده يجعل للأشياء أسامي خاصة فهو يقوم في ذهنه معنى للون الأصفر ، واللون الأخضر، واللون الأحمر . ولكن لا يقوم في ذهنه معنى مجرد للون وحده . ومثل ذلك كان شأن الاميركيين القدامى في لغتهم الشمالية فعندهم الشجر البلوط في الوانه اسماء خاصة ، ففي لغتهم اسم خاص للبلوط الأسود واسم آخر مخصوص بالبلوط الأبيض والأحمر ولكن ليس في لغتهم اسم خاص للبلوط وحده . وفي لغة البرازيل الشعبية اسماء لأعضاء البدن ولكن ليس للبدن وحده مسمىً عندهم[1] .

ويعطينا الأب توماس المثال الآتي عن التكوّن اللغوي بمشاهدة طريفة :

تلك ان طفلاً في مهده صرخ من ألم ألمَّ به ، فخفت اليه امه تربت عليه وتهز مهده حتى هدأ . وكان كلما عاود الصراخ عادت اليه أمه

---

(١) المصدر السابق P. 305

بالحنان والقربىٰ . فلم يلبث هذا الطفل أن صار يصرخ كلما أراد أمه . وصارت امه تفهم عنه ان الصراخ معناه أنه يريدها قربه . وقد اصبح يصرخ دون أن يشعر بألم يؤلمه . وهو بذلك قد خلق اشارته الأولى المنوطة بلغته الأولى .

ويقول العالم النفسي « مين دوبريان Maine de Brian » الذي مات في الربع الأول من القرن التاسع عشر . ان هذا الصوت المقرون بمعنى ارادي هو الأصل النفسي للغة . ففي استقراء لغة الطفل نرى المقاطع الصوتية ثم نرىٰ الجذور . وبعد ذلك نجد تشكل اللغة . ونجد الطفل كذلك يقرن تعابيره والفاظه بحركات شفتيه وعينيه ورأسه ويديه . ولا يشك علماء اللغة ومؤرخوها أن الانسان الأول كان يبذل مثل ذلك استعانة على توضيح التعبير وتفهيم الكلمات .

ويروي داروين مشاهدة لغوية يقول فيها ان طفلاً رأى بطاً يسبح في فيض فأطلق عليه اسم (كواك) Quack وجعل يطلق هذا الاسم في كل مرة على المكان الذي رأى عنده البط ، ويطلقه على كل ماء رآه بعيد ذلك الحين ، كما اطلقه على العصافير عامة وحين وقعت عينيه على قطعة فضية من الدراهم الفرنسية مرسوم عليها النسر النابولويوني صاح ، كواك ، كواك . فبهذه المشاهدة يقول داروين انه ليكفي للتكون اللغوي ان تنزلق كلمة من شيء إلى آخر ومن فكرة الى أخرى يجد الذهن بينهما صلة وارتباطاً وهذه الصلة والارتباط على جانب مفرط من التعدد فقد تكون الصلة بين اشياء محسوسة وبين اشياء معقولة وبين محسوس ومعقول ، وعند ذلك يختلف المعنى ويتبدل المبنى ويدخل التحول في الكلام بين الجذور والتابعات .

٣ ـ علاقة اللغة بعلم الجمال :

تدارس علماء الجمال قضية اللغة فشاركوا بآرائهم في خلق اللغة وبدء تكوينها إلى جانب دراسات الفلاسفة وعلماء النفس واللغويين في هذا

السبيـل فهم حين عرضـوا لتعريف الجميـل وتحـديد الفنّ فلم يستعينـوا بـالواقـع وانما انـطلقت خيالاتهم المجنحـة وراء عالم مثـالي ، وهنالـك بحثـوا فيـه عن الجمـال كمـا فعـل رودولف طـوبفيـر[1] R. Toppfer القصصي السويسري الـذي عاش في القـرن التاسـع عشر ، فقـد انطلق بتأملاتـه وراء تعريف الجميـل ولـم يستطع اليـه سبيلاً حتى خـامره حلم ميتافيزيكي استطاع معه أن يعرّف الجميل المطلق فقال: « إن الجميل هو الله » .

فإذا تقصينا مواليد الفن في الحيـاة الانسانيـة وكيف سار في نسقـه ومظاهره فانه يسهل علينا ان نلم بالأثر الذي أوجده الفن بـل نستطيـع ان نشـاهد الفن ذاتـه في أسبابـه وغايـاته ، ويعـوزنا في ذلـك ان نصعد في تاريخ البشرية حتى تأتي عهود الكهوف لنشد ولادة الفن الأول.

ولكي ألوّن البحث اللغوي بصيغ من علم الجمال اجتـاز المراحـل التي سلك فيهـا الفن حتى تكـامـل في أشكـالـه المـوسيقيـة ومـا يتعلق بالتصوير والرقص والتمثيل والنحت تاركاً الكلام عليها الى ظروف قابلة ، مختاراً التحدث عن اللغـة وحدهـا ، فان علمـاء الجمال عنـوا بميلادهـا ونشأتها وتطورها من الوجهة الفنية كعنايـة الفلاسفـة وعلماء اللغـة بها من الوجهة العلمية . ويحصرون استقصـاءهم في الكيف الذي اختـرعت فيه اللغة فيقولون ان المرء استطاع ان يخترع اللغـة منذ اقتـدر على ان يقرن الأفكار بالأشياء وان يميز في تتابع الأشياء والأفعال العناصر المركبة لها ، وقد استطاع بذلك أن يصل الى تسمية الأشياء المختلفة ووصف الأفعـال المتغايرة.

والغـالب في عـلمـاء الجمـال ذهـابهم الى رأي واحـد في ابتكـار اللغة وهو التقليد الصوتي الـذي يسمونـه onomatopée ويبنون حكمهم هذا على الغريزة ، ويرون ان كثيراً من الكلمات والألفاظ مقرون وضعهـا

---

(١) L'Esthétique. par Eugène Véron. Paris alfred Coste, Editeur 1921 P (2).

بمـا يتعلق بـالأصـوات وتقليـد الـطبيعـة . فكلمـة العـاصفـة ، وانـدلاع الحـريق ، وانحدار الأمـواه ، وصفير الحجـر الـذي ينحط من عـلٍ لهـا اسماء منزوعة من احوالها وان كثيراً من اصنـاف الحيوان قـد حمل اسمـاً اجش فيه صفاته . وفي دراسة الآثار المعاينة بالبصـر نجد فيهـا ما يشـرح نفسه أو كأنه يشرح بعبارات يخيل للمرء انها لم تكن مـوضوعـة إلاّ لأمور سمعية . فالمصورون يعلمون ان في مقدور فنهم ان يلبسوا بعض الوانهم اصواتاً وذلـك بان يعمـدوا الى مزيـج من التلاوين يبعث بـواسطة التـأمل مشاهدة الحركات وحسبان السماع لأصواتها . كما أن في مقدور فنهم ان يبعثوا الهدوء والسكينـة في نفوس النـاظرين لألـواحهـم الفنية التي يتجلى فيها الابداع في تصوير الهدوء .

وقـد روى لي مصور سـوري انه لمـا كان يجـول في أروقة متحف اللوفر وقف هنيهة امام صورة الأطفال المشردين الـذين اقتعدوا في زاويـة من درب يصطلون في زمهرير الشتاء ناراً واقدة تتوهج فشعـر أن قشعريـرة دبَّت في عظامه واحس كأن مطراً ينهمر وهو يسمـع صوتـه . ثم ثاب الى وعيه ، وعلم انه كان مأخوذاً بسحر الصورة والهامها الفني فنقلته الى شهر كانون .

ويـرى علماء الجمـال ان بمقدور المـوسيقى اداء النظائـر في ذلك التعبير . ويسمون هذه اللغة بالتعابيـرالـغيبيـة V.Métaphysiaque وقد اصبـح بمقدور الألفـاظ أيضاً والكلمـات بما طـرأ عليها من تـرف انساني وتحـاسين في التطور الفني فيمـا يتعلق بـالمحسـوسـات والمعقـولات ان صارت اداة للتعبير عن أحاسيس لـم يكن بمقدور الأناسي الأول الوصـول اليها . وما تزال المراحـل أمام العجـز اللغوي في أداء التعبيـر والاعراب عن المشـاعر ممتـدة امام اللغـة وكلماتهـا وأفعالهـا ، مما يتـرك اللغـات المعاصرة عاجزة عن المضي في استتمام هذه المراحل . إذ أن في خلال النفس ومضـامينها وضمـائرهـا مشاعـر لا يمكن للغـة أن تعبـر عنهـا وان خواطرنا الجياشة لبحر زاخر بل هي ميدان لا ينفذ لأقلام اللغة . فأية لغة

حتى اليوم مهما بلغت من الرقي استطاعت أن تؤدي كل التعبير اللغوي القائم في النفس . وقد احس بهذا العجز اللغوي ـ الشاعر العظيم احمد شوقي، فقال وهو يصف الشعر ويحدد آفاقه ويبين العجز عن التعبير عن خواطره :

الشعر وحي والهام وعاطفة يا ليت شعري هل قلت الذي أجد

كذلك أحسّ شوقي القصور في لسانه عن التعبير في نفسه . ومن هذا الوجه خرجت الفنون الشعرية الرمزية عند بودلير فيرلين وادغاربو وبول فاليري في نهضة الشعر الأخيرة في أوروبا وأمريكا . فلولا الاحساس بهذا العجز اللغوي لما كانت هذه المذاهب في الشعر المعاصر التي احتضنها علم الجمال وعلل وجود الفنون فيها .

وخير مزايا اللغات المعاصرة الحية ما بلغه الانسان بها من المدركات والمفاهيم . فقد ابتعد عن المادة واتصل بالمعنى المطلق فأصبح المجرد سلطان عظيم على الكلمات والعبارات . فأين هذه المجردات المعاصرة التي تجدها اللغات الحية في زمانا مما كانت عليه اللغات الميتة . يقول العالم اللغوي Anel Remusat[1] المتوفي في باريس عام ١٨٣٢ في كتابه : Recherche sur l'origine et la formation de la langue chinoise ان « فو ـ هي Fou - Hi » الصيني الذي يعده اكثر العلماء الصينيين أنه أول من أسس الامبراطورية الصينية وابتكر لغتها وكتابتها هو الذي ابدع الـ(كوا) Les Koua وهي خطوط لغوية منكسرة كانت الأُس الأول للكتابة الصينية الممتدة الى اليوم في الصين فمن مبادىء هذه اللغة أن الخطوط تؤدي الى مفاهيم مادية وان الصورة كانت أول سبيل الى تصور هذه المفاهيم .

وعلى ذلك أمثلة ففي اللغة الصينية خط يعني رقم ١، وخطان

---

(١) المصدر السابق P.18 .

يعنيان رقم ٢ الخ . . . وذلك شبيه لما كان الرومان الأقدمون يستعملونه في الترقيم . وفي الصينية نقطة من فوق معناها (من الأعلى) ونقطة من تحت معناها (من الأسفل) وخط مقطوع الى قسمين متساويين معناه (في الوسط) وثلاثة أوجه رجال مرصوفة معناها (يتبع) ووجها امرأتين متقابلان معناهما (أخصام) وصورة الشمس وراء الشجرة معناها (الشرق) وصورة عصفور على عشه معناه الغروب وصورة ماء وعين معناه (الدمع) وصورة باب واذن معناهما (استراق السمع) .

ففي هذا السبيل كانت اللغة الصينية العتيقة تعتمد على الصورة فكانت تبتعد عن المجرد لتقع في محض الحس . وكذلك كان شأن اللغة المكسيكية القديمة والأنامية واللغة الفرعونية .

ويميز اللغات في علم الجمال قضية النسق Le Rytme فان في كل اللغات مشابهات نسقية وموازين لفظية . ويلاحظ ذلك منذ القدم فان الأمم البدائية لها في نبراتها الفاظ نسقية وموزونات كلامية ممزوجة بموسيقى . وكان لهذه الأنساق تأثير على الحركات عند الأقوام التاريخية فانها مرقصة لها ومهيجة لحركاتها ، فالطفل في مهده ينام على سماعه أمثال هذه النبرات المتناسقة الموزونة المقرونة بهزات السرير . ولا أحبّ لسمعه من ذلك النغم المرتوب ، ومن هذه الناحية عالج علماء الأدب واللغة قضية النثر والشعر فأجمعوا في تاريخ الأدب والحديث على أن اللغة الشعرية سبقت النثر ، وأن لغة الشعر كانت وحدها السائدة في العصور التاريخية . فالآثار النفيسة Les œusvres المتناهية في قدمها كانت شعراً أمثال الفيدا Védas الهندية المقدسة التي وضعها قياسا Vyâsa وكانت منقوشة على الحجر ، والالياذة والاوديسة عند اليونان القدامى وانشودة الأناشيد ومزامير داود في التوراة كلها شعر . وثابت لدى المؤرخين الذين عنوا بالتاريخ اليوناني العتيق ان اكثر العهود الشرعية والقوانين الشعبية والتعاليم الطبيعية والدينية كانت منظومة شعراً . وكذلك كانت شعراً كتب الفلاسفة الذين حاولوا أول من حاول أن يشرحوا

القضايا الابتدائية التي تتعلق بتكوين الأرض وحركات النجوم.

فاستعمال النثر المكتوب يصعد في تاريخه الى أقلٍ من الف عام قبل عصر المسيح ، أما النسق الشعري فانه كان سائداً قبل ذلك في اللغات العتيقة[1].

كذلك أحببت أن افتتح موسم محاضراتي في (فقه اللغة) في كليتنا العزيزة متكلماً على معنى الفقه واللغة ، ومظاهر اللغة وأصولها التاريخية ، وعلاقة اللغة بعلم الجمال ليتسنّى لي فيما يلي عند الكلام على لغتنا العربية استقصاء أصولها وأوجه مظاهرها وعلاقة ألفاظها بمفاهيمها ، ولأتحسس صلتها بعلم الجمال وعلم الاجتماع ، أحاول درس ذلك على نحو ما يدرس الغربيون أسباب لغاتهم وصفاتها اللغوية في النطاق العلمي والفني والأدبي.

٤ ـ علاقة اللغة بعلم الاجتماع :

يعرّف علماء الاجتماع هذا العلم بأنه : « الدراسة المنهجية للحياة الاجتماعية » ، ويدخل في نطاقه علم السياسة كما تسند بناءه اركان الأسرة وحياة اللغة والدين والفنون فهو اذن مجموعة أعمال خطيرة من آثار المجتمع . وكل هذه المجموعات تخضع في هذا العلم لنواميس اجتماعية ، فليست قضايا الأسرة ولا مشاكل السياسة ولا أمور الدين ولا العلم . ومنذ نشأ هذا العلم ـ وهو من العلوم الحديثة في تاريخ الحضارة العقلية للانسان ـ اضفى عليه أساطين الحكمة دراسة اعمارهم كأوغست كونت صاحب الفلسفة الوضعية ودوركايم Durkheim الذي بسط سلطان نظرياته على علم الاجتماع المعاصر ومن تبعهما من المتأخرين كبوكلي Buglé وديا deat وهوبير Hubert.

ولست بسبيل شرح أو استفاضة في علم الاجتماع وانما يعنيني أن

---

(١) المصدر نفسه P.22 .

أدخل منه الى موضوعنا هذا العام وهو اللغة وقضية اللسان . وحين يعالج علم الاجتماع قضية اللسان واللغة يدخل عمله في نطاق الفسلجة الاجتماعية[1] كما يدخل في نطاقه مع السياسة والاقتصاد والتشريع والأخلاق علم الاجتماع النفسي Locio - Psychologie فلكي نفهم حق الفهم حياة اللغة فليس يكفينا تعمق مباحثها في كتبنا ووقوفنا على اغوار المكتبات التي تعنى بها ، وانما ينبغي الى ذلك ان نعاين تشكل اللغة وتطورها ، حيث تعيش وتنمو في كل فيئة بين ظهرانينا فلغتنا التي نتكلمها في الشام قد تصلح مثالاً للاستشهاد في حياتها وتطورها ، فنحن في أيامنا هذه نعيد سيرة لغتنا على عكس مما كان من أمرها في عصر ازدهارها . لقد كانت اللغة أول عصر الأمويين في فورة ازدهارها . وحين تمازجت الأعراق العربية بالرومية والفارسية خرج للحياة خلف من الهجناء افسد اللغة باللحن حين شاع اللحن ودبت اللكنة الى اللسان العربي بسبب تلك الظاهرة الاجتماعية وهي تمازج العرب بالعجم والروم . فجعلت اللغة الفصحى تنحدر حتى حماها علماء اللسان ونظموا القواعد للإعراب وحاولوا تحديد الصيغة اللفظية . ان أولئك الفقهاء اللغويين الذين عاشوا على مدى العصور العباسية قد دونوا اللغة وابدعوا المعاجم وسجلوا حركات الإعراب مقرونة بضوابط ليس في علوم النحو العالمية احكم منها ولا أرصن . وقد شهدوا عيش لغتنا القديمة وعاينوا تطورها . وكذلك نحن أهل القرن الرابع عشر للهجرة نعود باللغة ادراجها من حيث بلغ اللحن . فلغتنا العامية لحن كامل ، وغلط جامع . إننا لنعيد للغة بهجتها الأولى فنتعلم كيف نقوّم السنتنا من اللحنِ ، ونعصم كلامنا من الغلط . فإذا اقتدرنا على الترميم ، وبلغنا الغاية في البناء ، رددنا للغة العربية عهدها الزاهر أيام حلاواتها الأولى . فنحن إذن نشاهد حياة لغتنا ونعاين تطورها . وكما يكون التطور من

---

(١) استعمل المرحوم استاذنا سعيد البحرة حين علّم بالفلسفة في تجهيز دمشق كلمة الفسلجة تعريباً لكلمة Physiologie وهو (علم وظائف الأعضاء) .

الكمـال الى النقص ومن العلو الى التدني ، فكـذلـك يكـون بـالـرجعـة والنقيض . إن لغتنا اليوم تتطور فتترك عهـد النقص لترقى الى الكمـال . هذا هو الوجه الواضح في علاقة اللغة بعلم الاجتماع .

ومن هذا الوجه تنبثق علاقة علم الاجتماع باللغة وتتلقانا الجغـرافية اللسانية حيث نؤلف المخـطط اللساني لأصقـاع متعددة وذلـك بأن يقـوم الباحث اللغوي للهجات وضروب اللغات فيجري تجاريبه ومشاهداته في أمكنة اللغة ومرابضها فيتصل بالجماعات البشرية التي يريد استقـراء لغتها ويتسمـع لألفاظ النـاس فيهـا وكـلامهم . تلك هي النـوبـة التي قـام بهـا اجدادنا السالفون في عصـر التدوين اللغـوي ، حيث كانـوا يضربـون في مجاثم البادية والبقاع التي كان أهلوها في تلك العصور الغوابر مـا يزالـون على ألسنة قويمة ولغة سليمة .

وقـد ترقت الـدراسات اللغـوية الاجتمـاعية عنـد الأمم الغربيـة في عصرنا ترقياً عجيباً ، فقد انشئت في « كوليج دوفرانس » مختبرات لغـوية أشـرف عليها الأب روسيلو Rousselot وديـوان السجلات الكـلاميـة في جـامعة السـوربون فهـذه المعاهـد العلمية اللغـويـة تحلل الأصـوات في تماديها وتلاحقها والتفافها وعلوها وتدنيهـا وشدتهـا ولينها ، ومـا إلى ذلك مما يتعلق بطبيعـة الكلام والأصـوات . كما تجمـع هذه المعـاهد وثـائق صوتية ثمينة لتحفظها لقوابل السنين ، وآلاتها الصوتية متناهية في دقتهـا وقد اسـدت لعلم اللسان المعـاصر خـدمة لم يكن يحلم بهـا الأوائل . ولكـم ستكـون فائـدة هذه السجـلات اللغويـة للأجيـال الحاضـرة والقادمـة في دراستهـا لتشكـل الكـلام وطـلاوتـه وسيـاقـه في اللفظ والتعبيـر والنسق الصوتي .

وقـد طعق علماء أنـوار العلم الحديث جمـاعة من النحـاة الغربيين يستعينون في دراستهم لحياة النحو واللغة بـالمناهـج العلمية والـطبيعية . واستفـاد كـذلـك فقهـاء اللغـة الغـربيـة في هـذا العصـر من نتـائج علم

الاجتماع ، ومن أشهر هؤلاء ميلي Meillet وفاندري Vendryes[١] .
وقد أصبحت معالجة اللغة ومدارسة الكلام وصيغ اللفظ مدينة في هذا العصر لهؤلاء النحاة المحدثين وأضرابهم الذين ادخلوا النحو وفقه اللغة في زمرة العلوم التجريبية ووسموها بأقيسة النواميس الثابتة، وخلعوا عليها طوابع كأنها القوانين ، كأن يقولوا في شرعتهم اللغوية الحديثة[٢]: « إن بيئة السجن ، ومجتمع ثكنة الجنود ، وجو المدرسة تلد لغة خاصة يتداولها أهل هذه الأمكنة » أي أن حياة هذه الجموع تحمل على توليد مثل هذه اللغة ، حتى باتت أحكام أولئك الفقهاء الكلاميين قوانين عامة تؤدي أمورها الى مظاهر فسلجية ونفسية واجتماعية . وبهذا التعبير يوضع بين علوم اللغة علم حديث هو « علم اللسان الحديث » ولعله يكون بحبه للكشف والارتياد أصح من علم اللسان القديم وأضبط .

إن القوانين الاجتماعية للغة تصف اللغة بأنها حركة آلية شخصية بل هي آلة موصلة بين الناس وظيفتها تأدية الكلام ، وقد حدد المجتمع للغة طريقاً تسلكها لتكون قويمة . وعلى ذلك ابتكرت الانسانية نظام الفحص اللغوي ، فمن صحَّ لسانه نجح في الامتحان ، ومن لحن وتعثر لفظه رسب فيه ، وقد مدَّ العالم ميين حكمه على اللفظ والتعبير حتى قال ان لكل لفظ عمراً اجتماعياً ولكل تعبير حياة يحياها ، وكأنه يرى تنازع البقاء بين هذه الأحياء اللفظية واللغوية فإذا هو يقول : « ان الأشكال اللغوية الوعرة المعقدة تنزاح من درب اللغة فهي تترك مكانها للأشكال السهلة البعيدة عن التعقيد . وان التعابير المجردة تميل دواماً لتكتسي حلل التعابير المحسوسة وكل كلمة تملك حياة فيها قوة النماء ، فلكل كلمة شخصيتها وميلها للانطلاق أو الاحتباس . وان طغيان بعض الشعوب على بعض واندماج البداة بأهل الحضر يسبب في اللغة الأصلية

---

(١) Eléments de science du langage par janet, Pieron et Sal. Paris, Vuibert 1926 p 220.

(٢) المصدر السابق P.221 .

تحولاً في اللفظ والتعبير وفهم المعنى . فالقرويون الذين يهجرون قراهم ليندمجوا في دنيا البلد الكبير يمارسون السماع حيناً من الدهر للغة القوم الذين حلوا بينهم ثم تبدو في لغتهم ولهجاتهم بذات الألفاظ التي تعلموها محرجة على غير الحركات الدقيقة اللفظية التي كانت عليها، إن هذا الأمر يشاهده علماء الاجتماع حين يدرسون تطور لغة وطغيان لسان على لسان حتى يقولوا بعد كل ذلك مثل هذا القانون الاجتماعي اللغوي» .

« تتبدل الكلمات في معانيها ومبانيها حين تمر من جيل اجتماعي الى جيل آخر » .

وقد عرف سبيل ذلك فقهاء لغتنا العربية معرفة تدعو الى الاعجاب ففي نظرات الشيخ شهاب الدين الخفاجي من علماء القرن الحادي عشر للهجرة في مصر مواضع لهذه النظرية اللغوية في التأثير الاجتماعي . فقد قال وهو[١] ينقل قوله عن الجاحظ: « قال الجاحظ في البيان والتبيين : إن أهل المدينة نزل فيهم ناس من الفرس فعلقوا بالفاظهم فيسمون البطيخ : الخربز ، وكذلك أهل الكوفة يسمون المسحاة بال وهي فارسية ، ويسمون السوق : بازار وهي فارسية ، ويسمون القثاء خياراً والخيار فارسية » ، على أن هذا الاعتبار الاجتماعي عند فقهاء اللغة المحدثين أمر ممهور بالصحة والضبط وقد ظهر في أيامنا ضاحياً للوجود لكن بعض النقاد هضموه ورموه بأنه أمر غير محدود وهو الى ذلك مغمض . وقد كتب فاندري في دفاعه عن علاقة علم الاجتماع باللغة يقول : « ليس تطور اللغات إلاّ مظهراً من مظاهر التطور الاجتماعي » .

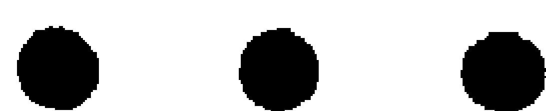
وللغات علاقة موازية لوضع الأمة فلغة الشعوب الأوروبية كانت أشبه بأمواج تهيج مع الوضع الاجتماعي أو تستقر لاستقراره وقد تذوب

---

(١) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل تصحيح النعساني وطبعة الخانجي في القاهرة سنة ١٣٢٥ صفحة ٣ ـ ٤ .

لغة في لغة كالذي كان للغة اليونانية حين ذابت في اللغة الرومانيـة . وان قضية السياسة ـ وهي من صلب علم الاجتماع ـ تعمل ابداً في حياة اللغة وصراعها في سبيل هذه الحياة.

وخـلاصـة مـا تقـدم من عـلاقـة اللغـة بعلم النفس وعلم الجمـال والاجتماع : ان صرحها المعنوي ينبغي ان يقوم على هذه الأعمدة الثلاثة التي هي نضـارة العقل الانسـاني وهي الأصول الثـلاثـة الأصيلة للطبيعـة الانسانية .



الفصل الثاني

١ ـ علم اللسان عند العرب :

حين يعبر الغربيون عن حياة مفرداتهم اللغوية يسمون علمهم الذي يعالج هذه المفردات (علم اللسان) Linguistique وبذلك أخذ انطوان مييه حين كتب عن حياة لغته في تكوّن أصواتها وتطور ألفاظها وارتسام معانيها وتحولها . ومثله سار سائر من كتب عن فقه اللغة من قومه المعاصرين والمتقدمين . لكن علماءنا العرب كانوا كثيراً ما يطلقون كلمة علم اللغة وفقهها على حياة الفاظنا العربية في قديمها وحديثها وعلى حياة تركيبها في معانيها . فأبو الفتح عثمان بن جني ، وهو أحد أئمة النحو ومن كبراء أهل الفقه اللغوي[1] في عصره يعرّف اللغة في كتابه الخصائص[2] بالحدّ الذي ذكرته فيما تقدم من الكلام على المفهوم من

---

(١) أجمع الذين ترجموا لابن جني أن فتوح المقفلات وشروح المشكلات في اللغة والنحو قد انتهت اليه وقد صحب أبا علي الفارسي أربعين سنة يأخذ عنه النحو والتصريف وأفانين اللغة وكان أبو علي الفارسي إمام النحو واللغة في بغداد فلما مات الأستاذ تصدر تلميذه في مجلسه ببغداد وقد صحب أبا الطيب المتنبي وشهد مواليد قصائده الرائعة . ولد سنة ٣٣٠ وتوفي سنة ٣٩٢ للهجرة في خلافة القادر بالله العباسي .

(٢) طبعة الهلال بمصر سنة ١٩١٣ الجزء الأول ص ٣١ .

كلمة اللغة عند العرب أنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » . وجعل من جاء بعده يشرح كلمات هذا الحد ويعلق عليها ، ومن يحشي فوق عبارات سابقيه . ولم يعرّف ما عاناه في كتابه الخصائص بأنه (علم اللسان) إذ لم يكن هذا التركيب مألوفاً عنده . فهو حين ذكر اللسان قال هو اللقلق[١] ثم ذكر قولة امرىء القيس التي قالها في اللسان : « وجرح اللسان كجرح اليد » ولم يقرن العلم باللسان في صدد فقه اللغة . وكذلك لم يحاول أبو الحسين أحمد بن فارس[٢] في كتابه « الصاحبي »[٣] أن يذكر كلمة (علم اللسان) ولعله لم يجدها مألوفة وقد أطلق كلمة « العلم » على فقه اللغة عنده . فقال في مفتتح كلامه في كتابه هذا : « إن لعلم العرب أصلاً وفرعاً ، أما الفرع فلمعرفة الأسماء والصفات كقولنا : رجل ، فرس ، طويل ، قصير. وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلم . وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها ومآلها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً » .

وجملة ما قاله في هذا التعريف هو المقصود في (علم اللسان) . ولو نظر الأوائل الى منطوق القرآن الكريم فيما يتعلّق باللسان لأطلقوا كلمتي علم اللسان على فقه اللغة فان فيما يعين على هذا الاطلاق قوله (تعالى) : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم**﴾[٤] فهو لم يقل واختلاف لغاتكم . فكان اطلاق القرآن الكريم كلمة اللسان على اللغة من مبادىء هذا التأليف اللغوي وكان القرآن هو الذي يقول عن نفسه أنه : ﴿ **بلسان عربي مبين**﴾[٥] ويقول : ﴿ **وما أرسلنا**

---

(١) ص ١٣ من المصدر السابق.

(٢) وجدت ابن فارس بين فقهاء العربية من أوفاهم حرية رأي وأجمعهم اخذاً من دنيا الأدب الى دنيا اللغة والنحو . لقد كان مكدود الحظ فأعرب عن خواطر فقره في شعر له جميل . توفي في الريّ عام ٣٩٥ .

(٣) « الصاحبي » كتاب ابن فارس في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها الفه للوزير الصاحب بن عباد وسمّاه باسمه .

(٤) الروم : ٢٢ .

(٥) الشعراء : ١٩٥ .

من رسول إلاَّ بلسان قومه ﴾ [1] .

وقد روي عن النبي (ص) استعمال كلمة اللسان بدلاً من اللغة حين قال[2] : « ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي الهاماً » . وهذا الحديث الذي أخرجه أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في كتابه : « المستدرك » على الصحيحين يدلي دلالتين :

○ **الأولى** : أن الرسول (ص) استعمل كلمة اللسان العربي ههنا بدلاً من اللغة العربية .

○ **والدلالة الثانية** : أن الرسول (ص) وهو سيد الأدباء وأستاذ فقهاء لساننا ، يقول بنظرية (التوقيف) فيشهد لاسماعيل بن ابراهيم أنه ألهم اللسان العربي الهاماً . وهذا الحديث مرفوع صحيح .

وكل هذا دليل اجده من القرآن والحديث على أن كلمة اللسان كانت المستعملة بديلاً من كلمة اللغة في هذه النصوص المقدسة التي كانت قدوة لأساليب الكلام العربي بعدها . فكان يصح ، بل يجدر أن يسمي العرب الأوائل فقه اللغة بعلم اللسان أو فقهه . لكنهم غلبوا كلمة اللغة حتى جاء الأواخر فزهوا بهذه التسمية وساروا على غرار الأقدمين . فان نصراً أبا الوفاء الهوريني وهو من المتأخرين له تعليقات وحواش على القاموس المحيط الذي وضعه محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ففي هذه التعليقات يعالج الحد الفني للغة العربية فيقول فيه : « هي علم يبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة من حيث دلالتها على معانيها المطابقة » ثم قال : « ان موضوع علم اللغة المفرد الحقيقي»، ثم قال : « علم اللغة هو علم الأوضاع الشخصية للمفردات » وكل هذه التعاريف منصرفة عن كلمة اللسان الى كلمة اللغة .

وقد بقيت في عجب من زهادتهم بهذا الاسم الشامل الذي كان

---

(١) إبراهيم : ٤ .

(٢) المزهر طبعة البابي الجزء الأول ص ٣٣.

القرآن والحديث معنياً به وهو لم يفت جمال الدين بن مكرم الأفريقي واضع المعلمة اللغوية الكبرى التي سماها (لسان العرب) ولم يسمها (لغة العرب) .

فعلم اللسان إذن هو فقه اللغة الذي نتدارسه في مراحله المتعاقبة في محاضراتي هذه وهو عند العرب خضم زاخر تشق عبابه سفين لا يحصى لها عدّ ، من ربابينتها الأول الخليل بن أحمد ومن نواتيها الأواخر السيوطي . وقد الفت في هذا اللسان العربي المبين كتب أخذ بعضها من بعض وسآتي على ذكر احفلها بهذا اللسان عند الكلام على المعاجم العربية والكتب اللغوية في درسي لتاريخ العلوم العربية.

٢ـ فهم العرب للغة الانسانية واراؤهم فيها :

حين مررت بكم على آراء الغربيين في نبعة اللغة واختراع أوليتها لم نقف طويلاً على الرأي الذي قال به افلاطون في الدهر القديم وما قال متابعوه فيه ومشايعوه عليه من أن اللغة أمر غيبي كان من عند الله مع الانسان ، منذ وجد على الأرض . لم نطل الكلام عليه لأن غيرنا من شرّاحه الغربيين ومناقشيه ما أطالوه . وإنما انصرفوا عنه انصرافاً متوخين لأنفسهم العافية مؤثرين الراحة من العناء واحسبهم وجدوا ان ذلك أمر غيبي يعوزه كثير من البعد عن ساح التجارب وأقيسة العلم التي أحب أن يأخذ بها جلة العلماء النظارين . لكنهم أطالوا القول وبسطوا المناقشة ونشروا الحوار حول النظريات التي تقول في علم الانسان بالتقليد والغريزة . وتقول بالجهد اللغوي والعمل الكلامي . وان اللغة من صنع الانسان.

ـ لكن العرب كانوا على نقيض ذلك فان أئمتهم اللغويين طولوا القول وشجروه وبسطوه ثم نشروه حين تكلموا علي أصل اللغة الانسانية وأولية وجودها على الأرض فيما يتعلق بالالهام الإلّهي.

وقد انقسموا إلى معسكرين عند كلامهم على الوضع الأول للغة البشرية وقد كان أناس من هؤلاء يجيئون من جهة إلى جهة أو يجمعون بين الأمرين . وكم يشبهون إلى حد قريب أو بعيد معسكري الفتنة العقلية الكبرى التي كانت حول خلق القرآن أو عدم خلقه في عصر المأمون .

وكان معسكرا اللغويين في قضية أصل اللغة هما :

١ ـ القائلون بالتوقيف والوحي .

٢ ـ القائلون بالتواطؤ والاصطلاح .

ومعنى التوقيف كما فهمه العرب هو الالهام الأول والتعليم الأولي ومعنى التوقيف في لغة العرب على ما في القاموس للفيروزأبادي : (وقفه ووقفه على الشيء اطلعه . وتوقيف الحديث تبيينه . . والتوقيف في الشيء التثبت) .

فأصل حياة اللغة إذن متجاذب عند فقهائها في رأيين . واحد يقول : انها كانت توقيفاً من عند الله أي حين خلق الله الانسان اعطاه اللغة توقيفاً فوقفه عليها أي علّمه إياها كاملة .

ورأي ثان يقول اصحابه ان الانسان هو الذي صنع لغته لنفسه حسب المصطلح الذي كان الاتفاق عليه بين أوائل من نطقوا بها . وان هؤلاء المصطلحين المتواضعين على تأليف اللغة الانسانية الأولى قد بدأوا كلامهم على شكل خاص .

وثمة رأي ثالث هو بين المذهبين يقول أصحابه : ان الله هو الذي علّم الانسان بدايات اللغة ثم مضى الانسان على هذا الغرار يفتق لنفسه مراحل لغته وقد جمع هؤلاء الفقهاء اللغويون بين فكرة الهام الإلـه وعمل الانسان .

أما أصحاب الرأي الأول فأشهرهم أبو علي الفارسي وأحمد بن فارس .

وقد أطلعنا على رأي أبي علي الفارسي في بدء اللغة تلميذه ابن جني فقال في الخصائص[1]: « ان أبا علي (ر هـ) قال لي يوماً (عن أصل اللغة) هي من عند الله واحتج بقوله (تعالى): ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾[2]. لكن ابن جني لم يفصّل القول في رأي شيخه أبي علي الفارسي وانما تناوله في جملة مذهبه هو. وجعل يبسط القول في افانين الآراء الباقية. على أن في قول الفارسي كفاية عن تتمة وفيه بلاغة بريئة من حشو. فرأيه واضح كل الوضوح في أن اللغة عنده من عند الله وهبها الله الانسان منذ كان على الأرض. فقد خلق الله آدم وعلمه الأسماء. وكانت قولة فقهاء اللغة والمخرجين فيها نقلاً عن عبد الله بن عباس ... ان المقصود بقوله (تعالى): بـ ﴿**الأسماء**﴾. هو ما يتعارفه الناس من أسماء لدابة الأرض والسهل والجبل والجمل والحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وقيل: علمه أسماء ذريته أجمعين وقيل: علمه اسماء الملائكة وقيل: اسماء النجوم. وقال آخرون: علمه أسماءه الحسنى.

أما رأي أحمد بن فارس صاحب الصاحبي ففيه افاضة وفيه صراحة. إنه يقول[3]:

« أقول ان لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله (جلَّ ثناؤه): ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ ثم أورد رأي ابن عباس في الأسماء التي علمها الله آدم حين خلقه ثم وكد ابن فارس رأيه بأن قال: والذي نذهب اليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس. وجعل يحترس في تفسير ما جاء في بقية الآية ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة** ﴾ فناقش التفسير على هذا الشكل.

فان قال قائل:

---

(١) المصدر المتقدم ص ٣٩.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة الطبعة السلفية بمصر سنة ١٩١٠ ص ٥.

لو كان ذلك كما تذهب اليه (أي علم آدم اسماء البهيمة والأنعام ودابة الأرض ومجائمها) لقال : « ثم عرضهن أو عرضها » فلما قال « عرضهم » علم أن ذلك الأعيان بني آدم أو الملائكة لأن موضوع الكتابة في كلام العرب يقال لما يعقل « عرضهم » ولما لا يعقل « عرضها أو عرضهن » .

قيل له:

إنما قال ذلك والله أعلم لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلَّب ما يعقل وهي سنة من سنن العرب أعني باب التغليب واستشهد ابن فارس ليدعم رأيه في باب التغليب هذا بالآية الآتية:

﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على أربع ﴾[1] فقال: « منهم » تغليباً لمن يمشي على رجليه وهم بنو آدم.

ثم ان ابن فارس بعد أن دفع نفسه في رأي التوقيف توقف فيه قليلاً أو توقف عنه فعدل عن اطلاقه الى تقييده وحصر رأيه في التوقيف وحده ولم يجاوز به الى رأي المصطلحين والمتواضعين فالتوقيف اللغوي عنده على مراحل:

○ **المرحلة الأولى:** علَّم الله آدم الأسماء كلها التي يحتاجها في مرافق حياته مما احتاج الى عمله في زمانه.

○ **المرحلة الثانية** : علَّم الله بعد آدم من عرب الأنبياء نبيّاً نبيّاً.

○ **المرحلة الثالثة** : علَّم الله خاتم النبيين محمداً (ص) فانهى اليه أمر اللغة .

ويغلق ابن فارس باب اللغة هذا بعد الرسول فيقول : « فلا نعلم لغة من بعده حدثت . فان تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نفاد العلم

(١) آلنور : ٤٥ .

من ينفيه ويرذه »[١] . وليدعم ابن فارس رأيه في التوقيف الآلهي للغة يلجأ الى نقض المذهب الاصطلاحي في اللغة فلا يقبل بقضية الاتفاق بين المتكلمين على لسان يتفاهمون به ولا يؤمن بقضية الاصطلاح في القديم لأنه لم يشاهده في الحديث فيقول:

« انه لم يبلغنا ان قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه فكنّا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم.

ويقلب نظره في الأوائل وفيهم صفوة البلغاء والفصحاء وفيهم الصحابة من أهل الوقوف وبعد النظر فلا يراهم قد اصطلحوا على اختراع لغة أو اتفقوا على إحداث لفظة لم يكن العرب قالوا بها قبلهم فيشتد نكرانه لنظرية الاصطلاح ويرى في ذلك دليلاً جديداً على صحة ما ذهب اليه في هذا الباب.

أما قالة المذهب الآخر ، وهم الذين يرون الاصطلاح المحض في اللغة وانها من وضع الانسان فقد ذكر جلال الدين السيوطي في المزهر[٢] أصول هذا الرأي وفروعه والرد عليه ويتلخص احتجاج أصحاب هذا الرأي بما يلي:

لو كانت اللغة قد حدثت بالتوقيف والالهام الرباني لكان من الواجب أن يكون الرسل هم المتقدمين في الزمن على حدوث اللغة أي كان في وسعه (تعالى) أن يخلق أول ما يخلق من بني الانسان الرسل ويوقفهم على اللغة لتكون أداة لتفاهمهم مع البشر الذين أرسلوا اليهم . وهذه المقالة اي اشتراط تقدم البعثة على التوقيف منقوض بما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلسان قومه﴾[٣] فهذه الآية

---

(١) الصاحبي ص ٦ .
(٢) طبعة البابي ج ١ ص ١٦ .
(٣) إبراهيم : ٤ .

تدل على أن القوم الذين أرسل اليهم الرسول قد عرفوا اللغة في زمن سابق . ولما ضلوا سواء السبيل أرسل الله اليهم الرسول ليهديهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

فإذا طرح أصحاب هذا الرأي قضية التوقيف وأخذوا بالاصطلاح خلصوا من التناقض ويظهرنا السيوطي على أن الذين قالوا بالاصطلاح هم المعتزلة[1] ونحن نعلم أن المعتزلة كانوا جماعة عقليين اكثر مما كانوا نقليين وان حرية الرأي كانت بادية على مقالاتهم . وسبب هذه الحرية عندهم أنهم كانوا علميين ويميلون الى المناهج والنظم في مقولات العقل ومقولات النقل ويعتمدون في هذه النظرية اللغوية على أساس مذهبهم في انكار الصفات الإلهية فاللغة عندهم لو صح توقيفها والإلهام بها منذ بدء الخليقة لوجب الا تكون قضية العلم باللغة صيغة من الصيغ المخلوقة بذاتها وانه لا يجوز عندهم ان يخلق الله العلم بالذات لأنه لم يخلق العلم بالصفات .

والظاهر أن السيوطي يمضي على غرار الأصوليين في تعليل المذاهب المتداولة في علم من العلوم بالنزعات الفكرية الأصيلة . فكما قال عن ابن جني أنه كان معتزلياً فكذلك قال عن أبي الحسين بن فارس انه كان من أهل السنة وقد يجعل السيوطي هذه الأوصاف على علماء اللغة ، ليطبع آراءهم بطوابع نزعاتهم الفكرية .

على أن ابن جني آخذ بين المذهبين فهو يبسط رأيه في باب خاص من خصائصه[2] في قضية أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح ؟ فيقول : « هذا موضع محوج الى فضل تأمل غير أن اكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف » .

فنتبين من هذا البدء الذي بدأ به ابن جني مقولته في قضية اللغة أنه

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠ .

(٢) ص ٣٩.

يجب أن يهجم على الموضوع مع فضل تأمل واستطالة ترو . ثم يجعل الكثرة من أهل النظر وهم المنقرون الباحثون متفقين على أن أصل اللغة تواضع واصطلاح فالقلة منهم إذن هي التي ذهبت مذهب الوحي والتوقيف في الأصل اللغوي . وقد قسم مذهبه الى ثلاثة مراحل ونتيجة :

○ **أما المرحلة الأولى** : فهي في مناقشة القلة التي قالت بان اللغة وحي من الله وتوقيف . ومن هؤلاء أستاذه أبو علي الفارسي الذي كان يرى رأي ابن فارس في توقيف اللغة ووحيها . فكان من ابن جني أن أخذ بتقريب أسباب الخلف بين الرأيين ، رأي الوحي ورأي الوضع وقد حل العقدة بين الفريقين فلم يجد مانعاً من ان يكون (سبحانه) خلق آدم وعلمه أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات . فكان آدم وولده بتكلمون بها ثم ان ولده تفرقوا في الدنيا فكان لكل منهم لغة خاصة . والظاهر في هذه المرحلة من الخطل ان ابن جني لايتصور الأزمان التاريخية وتناسلها . فان للأزمان تناسلاً وتعاقباً . فهو يورد أن الله علَّم آدم كل اللغات ، ويعد منها العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية ، وقد ثبت عند علماء اللسان أن هذه اللغات سابق بعضها بعضاً في الظهور الدنيوي لأنها تابعة لأقوام متعاقبين ولا يصح أصلاً أن نقبل من ابن جني هذا الرأي الذي أورده ، حين أراد أن يقرب رأي استاذه أبي علي من رأي اصحاب الاصطلاح .

○ **المرحلة الثانية** : من رأي ابن جني في أصل اللغة هي انه ضرب مثلاً في الاصطلاح اللغوي وحدوثه فذكر أنه يمكن ان يجتمع حكيمان (والمراد بالحكيم ههنا : من يضع الشيء في مواضعه ، لا الفيلسوف المعروف بالحكمة لأن أصل اللغة سابق للفلسفة التي هي فرع من ذلك الأصل) أو ان يجتمع ثلاثة حكماء فإذا هم محتاجون الى الابانة عن اغراضهم فيتواضعون مصطلحين على تسمية شيء بعينه باسم مرتجل من الأسماء ويكون هذا الشيء بأعينهم فيستعينون بهذا الاسم على ادنائه الى معانيهم حال غيابه فكأنهم جاؤوا الى واحد من بني آدم

فأومأوا اليه وقال انسان ، انسان ، انسان . فكلما سمع بهذا اللفظ فهم أن المقصود به ذلك المخلوق.

ثم يدخل ابن جني هذه المواضعة في غير العربية كالفارسية فيزعم بواسطة الاحتمال نقل اللفظ الى آخر في لغة ثانية . وكذلك يكون الأمر لو بدأت اللغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها لجاز ان تنقل ويولد منها لغات كثيرة . وهذا الرأي تعوزه مناقشة ، فان ابن جني يرى الترجمة في المواضعة الأولى أي ان اللغة العربية بعد أن تم الاتفاق فيها على مسميات ولدت اللغة الفارسية وحدثت المواضعة بنقل كلمات من العربية الى الفارسية فكانت هذه الكلمات الفارسية هي التي بنيت عليها المواضعة الأولى. لأن ابن جني يقول[1]: « فنقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذي اسمه رأس فليجعل مكانه سر (في هذه اللغة التي نسميها فارسية) وعلى هذا بقية الكلام.

وهو لو عمد الى افتراض المواضعة الأولى في اللغة الفارسية وغيرها كالرومية للزمه بدء العالم بكل واحدة منهما لكنه كان يقصد الى ان أول لغة كانت على الأرض هي اللغة العربية ثم جرى النقل عنها في المواضعة والاصطلاح.

○ **المرحلة الثالثة** : من مراحل الأصل اللغوي عند ابن جني هي الفكرة العلمية التي ذهب اليها علماء اللسان الغربيون فقال ابن جني : « ذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحفيف الرعد وبعيق الغراب وصهيل الفرس . ونحو ذلك ثم ولدت اللغات من ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل » .

وإلى هذا الرأي انتهى علماء اللغة الغربيون فانهم حين عجزوا عن

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٤٣.

كل وسيلة يعللون بها أصل اللغة وتـوالد للكلمـات وتناسـل الألفاظ وكـل عبـارة للمدركـات المعنويـة لجأوا الى نظريـة التقليد لأصـوات الـطبيعـة المسمى عنـدهم ـ كمـا ذكـرت سـابقـاً في بحث التمهيـد لفقـه اللغـة ـ onomatopée.

ويخلص ابن جني من كل هذه المناقشات الى تحليل نفسي متصل به وبأحكامه فهو بحق عالم نقار كان منحة إلهية للغتنا العربية ، انه يرجع الى نفسه ليحلل هذه النفس إبان احكامها اللغوية فيقول[1] :

« واعلم انني على تقـادم الـوقت دائم التنقيـر والبحث عن هــذا الموضع فاجد الدواعي والخوالج قوية إلتجاذب لي مختلفة جهات التغول على فكري وذلك انني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمـة والدقـة والارهاف والـرقة مـا يملك على جانب الفكر حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر » .

وبعد هذا التحليل الذي حلله ابن جني لنفسـه تلقاء اللغـة وهجوم السحـر على رأيه في ذلـك حتى كاد هـذا السحر يغـول رأيه ويـأتي على حـرية فكـره ، راح يفسر أن سحـر هذه اللغـة التي عرف ابن جني رقتهـا ولطفها ورهافتها قـد ارجعه في نتيجـة رأيه الى حـظيرة من قـال بتوقيفهـا وانكـر التواضـع فيها والاصـطلاح فأقـرَّ عند هـذه النتيجة بـان هذه اللغـة الشريفة من عنـد الله (جل وعـز) وقوى في نفسـه الاعتقاد انهـا « توقيـف من الله (سبحانه) ، وانها وحي » .

ثم لا يلبث قبل ختامه بحثه عن أصل اللغة أن يعود شاكاً متحيراً ، وان يقف (بين الخلتين حسيراً) وبعد قراءة انه ان حصل في كفه مـرجح مـال الى احـدى الجهتين ، وقـال بـاحـد الـرأيين فهـو إذن واقف بين المذهبين مذهب التوقيف والوحي ومذهب التواضع والاصطلاح.

---

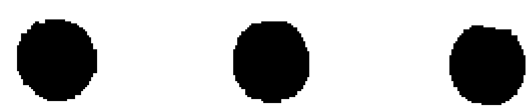
(١) الخصائص ج ١ ص ٤٥ .

وقد أورد السيوطي[1] في هذا السبيل ـ وهو جواز الرأيين ـ قول عبد الملك الجويني الملقب بإمام الحرمين المتوفي سنة ٤٧٨ للهجرة الذي كان جوّز كلا الوجهين وبسط مآخذ الرأيين فقال ان جواز التوقيف واقع بغير تكلف لدليل وذلك بان يخلق الله في أذهان الناس علوماً بديهية بصيغ مخصوصة لها معان . وجواز الاصطلاح عنده ان يحرك الله نفوس العقلاء ليتواضعوا بينهم فينشئوا باختيارهم صيغاً يقرنونها بما يريدون من احوالهم . وهنا لا بدَّ لي من اظهار اعجابي برأي هذا الامام الذي جاء موافقاً لطبائع الاستنتاج العلمي في عصرنا في قضية اللسان وهذه سابقة من علمائنا اللغويين صار اليها اجماع المتأخرين من علماء اللسان في الغرب . تلك ان اللغة كانت اصطلاحاً وان تدرجها خاضع للنظام اللغوي عند الأطفال فقال إمام الحرمين على ما أورده السيوطي : « وبهذا المسلك ينطق الطفل على طوال ترديد المسمع عليه في تلقينه وافهامه » .

وأورد السيوطي هذا الرأي المتعلق بالتدرج اللساني عند الطفل في كلام نقله عن حجة الاسلام الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ للهجرة . فالغزالي يقول بالرأيين أيضاً وينقل عنه السيوطي هذه العبارة :

« وكيف لا يجوز في العقل كل واحد منهما (أي الرأيين) ونحن نرى الصبي يتكلم بكلمة أبويه ويفهم ذلك من قرائن احوالهما في حالة صغيرة فاذن الكل جائز »[2] .

بهذا استطيع أن اجمل مذاهب علماء العربية الأول في اصل اللغة الانسانية . وكم يعجبني ان ينتهي فريق منهم الى ما رآه علماء اللسان الغربيون وان يكون لهذا الفريق سبق الى ما يصح قبوله في مناهج العلوم الحديثة .



(١) المزهر ج ١ ص ٢١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣ .

الفصل الثالث

١ ـ مناهج البحث في علم اللسان :

يقول الفقيه اللغوي « آبيل هوفيلاك » Abel Hovélacque في مقدمة كتابه La linguistique [1] وهذا العلم عنده هو (التاريخ الطبيعي للغة) : لقد كانت السنون الأواخر من القرن الثامن عشر هي التي شهدت ولادة المناهج في البحوث العلمية . وان شرف هذا الفتح المبين في الثقافة اللغوية المعاصرة مدين لمن كتبوا المعلمة الكبرى الانسيكلوبيديا . فبأيديهم وحدهم فتحوا باب العصر الحاضر ومن عهدهم بدأ دور العلوم التجريبية . وقد كانت العلوم والمعارف قبل عهد المعلمين ممزوجة بالغيبيات والظنون الاعتقادية فلما كان زمن هؤلاء العلماء فارقت العلوم الرياضية والكيميائية والتاريخ الطبيعي كل صلة لها بما وراء الطبيعة وما كان علم اللسان والفقه اللغوي اقل خطراً من تلك العلوم المعاصرة.

من هذه المقولات الأولى اندفع « هوفيلاك » وراء غايته اللغوية فنقد علماء كثيرين خلطوا انفسهم بدراسات لغوية وأدبية من غير أن يضعوا قدماً واحدة في أي مختبر من المختبرات العلمية . وقد آلى هذا

(١) طبعة Coste بباريس سنة ١٩٢٢ . La linguistique par Abel Hovélaque

العالم اللغوي على نفسه ـ منذ البادرة الأولى في كتابه ـ ان يتجنب كل احلام من سبقوه في هذا البحث . . فاللغة عنده تاريخ طبيعي متضمن علم التشريح والفيزيولوجيا وان اللغة المعربة المعجمة هي حدث طبيعي خاضع ـ ككل احداث الطبيعة ـ لمجال الكشف والدراسة العلمية.

وأستطيع أن أفسر مقاصد هذا العالم . فمراده جعل اللغة علماً تجريبياً يدخل المختبرات التي كانت الى عهد حديث لا تفتح ابوابها إلاَّ للمعادن والجواهر العضوية . فإذا بضيف جديد يدخل عليها سدتها الرفيعة وهو اللغة . وقد فسر « مييه » هذه الظاهرة العلمية المحضة في اللغة حين قال : « علم اللغة متصل بعلم الطبيعة لأن اللغة تتكون من اصوات ومتصل بعلم وظائف الأعضاء لأن تلك الأصوات تولدها حركات عضلية وتدركها الأذن . ومتصل بعلم النفس لأن الجمع بين تلك الحركات واعطاء الأصوات دلالتها يرجع الى حقائق نفسية. وعلم اللسان يستفيد من هذه النتائج العلمية كلها » .

فعلم اللسان قد خضع عند الغربيين المعاصرين الى انظمة المناهج العلمية . وقد خط « هوفلاك » لنفسه في مقدمة هذا العلم منهجه الذي مضى على وتيرته فقال إن منهجه في علم اللغة هو منهج سائر العلماء المعاصرين في قضاياهم العلمية وهو المنهج التجريبي . ذلك المنهج الذي تعتمد عليه كل المكتشفات الحديثة للفكر البشري .

وأفسر غاية هذا العالم من منهجه ـ كما تبين لي في طريقة بحوثه بكتابه ـ انه اتخذ المنهج العام الذي كان اساساً للدراسات العلمية الجديدة وهو ما يسمى « الطرق العامة التي تشترك قواعدها في سائر العلوم » فللرياضيات ولعلم الاجتماع ولعلم التاريخ اشتراك عام في قضايا منهجية كالتي سار عليها ديكارت وابتدع شروطها[1] وإلى جانب هذه الطرق العامة امور منهجية خاصة بكل علم يستند اليها وحده

---

(١) راجع دروسي في كلية الاداب سنة ١٩٤٨ عن منهج ديكارت وطرقه العلمية التي بسطت سلطانها على العلوم المعاصرة واستفاد منها الأدب.

لتوضيح موضوعاته التي يعالجها .

ولا ينكر فقه اللغة المعاصر ما كان عليه السلف من الأخذ بمناهج مقبولة حدا اليها طبع الغابرين ، حين لم يكن لديهم اتصال بقضايا العلوم المادية . فلغويونا القدامى لم يكونوا بمعزل عن منهج لغوي حين صنفوا بحوثهم . فلقد عنوا بالمنهج . كانوا يعمدون الى استخدام قواعد التصنيف في بحوثهم وقبل أن يصنفوا الألفاظ ويرتبوها في أبواب مختلفة وموازين لجأوا إلى قواعد السمع للفظ العرب . فكانوا يسمعون اللفظ الواحد من أفواه متعددة في الحضر والبادية وكان عندهم السماع فناً لغوياً فما استقام اعجامه من الألفاظ المسموعة اثبتوه في دفاترهم تحت موازين خاصة وتصنيف متعدد شامل . وكانوا إذا اختلفوا في اعراب أو لفظ ولم يمنحهم الجدل حقيقة لجأوا الى الاستشهاد بكلام الأعراب كما حدث لسيبويه في فتنة لغوية مع الكسائي فتسمعا الى اعرابي فيما اختلفا عليه . وكان لأقدمينا مناهج أوسع من ذلك حين أبدعوا في فقه لغتنا طريقة القياس وابتكروا الموازين الصرفية . وقد كان علماء اللغة الغربيون المتقدمون على مثل هذه الحالة بدأوا تصانيفهم اللغوية من طريق الملاحظة العادية ، وكانت اداتهم السماع والقياس أيضاً . فقد كانوا يسمعون الصوت اللغوي ويبسطون فيه ملاحظتهم قبل ان يصل خلوفهم الى اختراع الآلات الصوتية التجريبية . كانت حواسهم وعقولهم هي التي تميز اللهجات والنبرات وهذه الطريقة العادية اعانت العلماء المتأخرين . فما كان المرء الذي يبتغي الملاحظة اللغوية إلاّ متوسلاً بها . فهي التي حققت عن نشأة اللغة وهي التي فرّقت بين أشباه الكلام وقارنت بين نظائره وهي التي كانت أول مبين عن مختلف اللهجات وطرق النطق بها . وبهذه الطريقة الساذجة ربط العلماء بعض القواعد ببعض فكانت عندهم بمنزلة القاعدة الأصولية العامة .

وكان من فروع هذا المنهج عند الغربيين انه يتناول اللغات العتيقة التي باد قائلوها وانقرضوا واللغات الحديثة المتداولة حتى أيامنا وفي

دراستهم للغات الحية فوائد جلي لأن هذه اللغات المتفرقة من مواليد اللغات الدوارس وبمعرفة كنهها يعرف اللغويون تطور اللغة وتحولها. فكم من لغة ميتة كانت في الدهر خافقة بالحياة فافتحوا أي معجم شئتم من معاجمنا تجدوا في كل كلمة منه روحاً كامنة. ان كلمة الوجد مثلاً كانت اعراباً عن احاسيس لا يحصى لها عد للأناسيّ الذين عرفوها. وكانت كلمة الغضب مثالاً لنزعات انسانية موروثة في سحيق السنين وكلمة البراءة صورت من البشر من كان أرقهم قلوباً وأطيبهم نفوساً، بما لا يأتي عليه عد أو حصر. وكذلك ألفاظنا المنطوية والمهملة والمهجورة والمتروكة، اني لأعدها في نطاق اللغة الميتة، لأن أهلها الذين كانوا ينطقون بها غبروا وغابوا في تضاعيف الماضي المترامي البعيد.

وعلى ذلك كان علماء البلاغة العربية يستكرهون لفظة «مستشزرات» التي ذكرها امرؤ القيس وصفاً لغدائر فرسه فانكر البلغاء والفصحاء هذه الكلمة اللغوية وما كنت معهم في مذهبهم هذا. وانما اجد ان عصر امرىء القيس كان يستسيغ هذه اللفظة، ولا تحدث في سمعه نفرة كما لا تنبو عنها اسلة لسانه. ومن يدري فربما كان العرب البائدون يلفظون الهعخع والظش على نحو يدخل الموسيقى على آذان سامعيهم. لقد تغير القائل والسامع فليس لنا ان نستهجن طائفة من كلام الأولين كانت لديهم محببة.

فدراساتنا لهذه الألفاظ المنقرضة وأشباهها هي الدراسة المنهجية التي يقول بها علماء اللسان حين يدرسون اللغة اللاتينية والهلينية في صحفها البوالي التي ما تزال منشرة بفضل علم اللسان ومنهجه اللغوي.

وعند دراستي لعلم الأصوات Phonétique سينجلي لكم خبر المنهج اللغوي في المنطق. وكيف يستطيع عالم اللغة ان يلاحظ على الطريقة الذاتية والموضوعية. فان الظواهر اللغوية في النطق وفن الكتابة خاضعة لعوامل هاتين الطريقتين. وقد يعمد فقهاء اللغة التجريبيون الى تجربتين واحدة هي مشاهدتهم لأنفسهم اثناء الكلام والانشاء الكتابي

وثانية هي مشاهدتهم للآخرين في ذلك . وبين علماء اللغة تحاور طويل وانتقاد لهذه الطريقة يتعلق بدقة الملاحظة وصدق التسجيل . وما يحمله اللغوي من سوابق فكر قد تعيقه عن الادراك لصحة التجربة أو تفسدها عليه وقد يختلف شأنه هو عند اعادة التجربة على نحو ما يعبر هيراقليت عن شأن حسه وصفات عقله تلقاء التجارب الفكرية بقوله « اننا لانغطس الغطسة نفسها في استحمام متكرر » .

وقد يكون موضوع الملاحظة اللغوية ناقصاً كما يجري في تقصي اللهجات وطرق الأداء الكلامي في اصقاع مختلفة أو في بلاد متعددة من الصقع الواحد . وقد قامت طائفة من علماء اللغة الفرنسية في شمالي افريقيا بتجارب لغوية تتعلق باللغات المعاصرة واللهجات المتداولة في تونس والجزائر ومراكش . فان معهد الدراسات العليا المغربية قد عني بنشر مؤلفات لغوية منوطة بظواهر لغوية كان من بينها كتاب وضعه برونو[1] Bronot درس فيه لهجة الشاطىء البحري التي يتكلم بها سكان منطقة رباط فى كلامهم . وكذلك صنع بيارنيه Biarnay حين درس علم اللسان لدى الأفريقيين الشماليين كما عالج لوبينياك Loubignac اللهجة اللغوية والنحو عند قبائل الزيان وزغوغو من ديار المغرب الأقصى . والذي اذهب اليه ان هؤلاء العلماء ـ وقد كان بعضهم من اساتيذ معهد العلوم المراكشي ـ قد اخذوا انفسهم بملاحظات لغوية لسكان الأنحاء التي كانوا فيها . فباستقراء كلام المتكلمين المتعدين يستطيع عالم اللغة أن يثبت النص اللفظي للغة المتداولة وان يحدد أسباب لهجاتها وما فيها من قديم الكلام وحديثه وطرق النطق والهجاء . ولا أشك ان هؤلاء العلماء حين قيدوا اللهجات العربية في شمالي افريقيا في عصرنا هذا قد تعرضوا الى صعوبات جمة فان النطق المغربي يعرض اللفظ العربي الى زيادة في الاعلال أو نقص فيه . وقد استبدل العلماء اللغويون

---

(١) طبع باريس سنة ١٩٢٠

المعاصرون بسماع الأذن الآلات التجريبية التي تسجل بها الأصوات . فأبانت خطلاً كبيراً وقع فيه السابقون حين استخدموا آذانهم في السماع . ولم يكن في أيامهم اسباب لتسجيل اللفظ اللغوي . وقد يعرض الغلط اثناء تطبيق هذا المنهج التجريبي بالاذن في تتبع اللهجات وتقصي الكلمات ومخارج حروفها ، فان النطق قد يلامسه التباس كما يلامس السمع وعند ذلك يجد هؤلاء العلماء المخالفة بين المقول والمكتوب . وكم يكون الجدوى اكثر خيراً لو كان عرباً أولئك العلماء الذين درسوا اللهجات العربية في شمالي افريقية . فالمستشرقون مهما علوا في معرفة لغة العرب فانهم يظلون ابداً دون اهليها في النطق ومخارج الحروف وهذا يسبب لهم نقصاً في تمام التجارب اللغوية وقد رحت اتمنى على علماء العربية المعاصرين أن يتاح لهم تطبيق التجارب العلمية على اللهجات ليأتي علم اللسان العربي المعاصر بأحسن نتائجه المنهجية .

كل هذا منطو على ما يختص بسمع العالم اللغوي ودقة مشاهدته العينية لمظاهر الأحداث اللغوية . لكن علم اللسان الحديث اصبح جل اعتماده على استعمال آلات خاصة لتسجيل الأصوات اللغوية تأميناً للنتائج التي ينبغي أن تكون اساساً للأحكام العلمية على الطبيعة الصوتية للغة من اللغات .

ولدى علماء اللسان المعاصرين طرق لمنهج البحث في اللغة يبدأ بتشكل الاتصال الحرفي ومشاهدة مخارج الحروف وعلى هذه البداية يبنون نظرياتهم اللغوية في التكون اللفظي والتآلف الكلامي . فهم يلاحظون انفسهم كيف ينطقون بالحرف وبالحروف . وكيف يتلفظون بالجمل ثم ينقلون تجاربهم من على أنفسهم الى غيرهم فيكون عملهم المنهجي قد خرج من الفعل الذاتي الى المشاهدة الذاتية . أو يتركون غيرهم يقيد ملحوظاته وهم يتكلمون أو يقومون بما يسمونه Enquête générale أي فتيا عامة وتكون بطرح أسئلة وتلقي أجوبة متعددة ممن تطرح عليهم من الناس العديدين ثم تروق هذه الاجابات وتتخذ منها

وحدات لفظية تكون اصلاً للقواعد العامة.

ولسنا نعلم حق العلم ماذا تسنىٰ لأجدادنا العرب حين دونوا أوائل الكلام اللغوي. ولست اشك انهم كانوا على منهجية علمية في عملهم هذا القديم ودليل ذلك أن اللغويين يذكرون الفاظاً في لغتنا مؤنثة ويجوز تذكيرها أو مذكرة ويجوز تأنيثها ومسميات يتعاود عليها التذكير والتأنيث على السواء فهم - كما أرى - كانوا حين سماعهم هذه الأسماء من لافظيها قد وجدوها عند فريق مؤنثة وعند آخر مذكرة، أو وجدوا الفريق نفسه يؤنثها ويذكرها. وكذلك يكون البحث اللغوي جارياً على منهجية في تدوينه واستكشافه عند الكلام على اللفظ المشترك واللفظ الخاص والعام والألفاظ المطلقة والمقيدة والكلام على المتتابع والمترادف، وما الى ذلك من بحوث الفقه اللغوي. وكذلك كان الفضل الأول لجامعي هذه الألفاظ من ناطقيها وهم وحدهم الذين تسمعوا إلى اللافظين لها والمتكلمين بها فسجلت آذانهم نبرات المتكلمين وعرفت مخارج الحروف على طريقة التجربة العادية في منهج البحث اللغوي.

ولدى علماء اللسان المعاصرين طريقة في مناهج بحثهم يسمونها (طريقة قياس الغابر على الحاضر) وهي أن يعمد العالم اللغوي إلى السماع من معاصريه الذين يمتون بأنساب الى الغابرين فيقيس ماضي لغتهم بحاضرها. وهذه الطريقة تحتمل كثيراً من الصعاب والأغلاط فإن الأقدمين كانوا يتكلمون لغة على غير ما يتكلم المعاصرون. وإن التطور اللغوي وما دخل على علم النحو واللغة من التحول يحول دون الفائدة الجلى من اتباع هذه الطريقة. فنحن حين نأخذ نصاً مما كتب اهل القرن السابع عشر في فرنسا أو السادس عشر نجد شعراء البلياد Les Poetes de Pleiade وهم شعراء عاشوا في عصر لويس الثالث عشر أحدهم رونسار Rounsard نجد أنهم كانوا يتكلمون لغة فرنسية تختلف في لفظها عن اللغة الفرنسية المعاصرة أو التي كانت في عصر النهضة بعد ثورة ١٧٨٩. وكذلك يكون الأمر حين نطبق هذه الأقيسة على لغتنا

العربية وعلى فقهها اللغوي ، فان لغة صدر الاسلام تختلف عن لغة المولدين ولغة هؤلاء مغايرة للكلام في اواخر العصر العباسي ، فقد انقرضت الفاظ وولدت أخر وعفي على تعابير ، ودرجت من مهادها تعابير . ولم يكن الأقدمون يعرفونها فأين من اسلوب القاضي الفاضل الذي كان أيام الصليبيين أسلوب عبد الحميد بن يحيى . واين من شعر الصفدي والحلي شعر الأخطل وجرير . واين كل هؤلاء من كلامنا المعاصر ولغتنا المهزولة فاذا كان من فضائل لغتنا العربية ان نحوها لم يغير خلال العصور فقد عاش الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً منذ أبي الأسود الدؤلي وعصر الخليل بن احمد الى اليوم . حتى خلف في عصرنا ناس يقولون بتيسير النحو . وما أحسب شيئاً من هذا يصيرون اليه والقرآن الكريم حارس هذه الفصحى وديوان قواعدها . ولولا القرآن الكريم لتغير نحونا ودالت دولة لغتنا على كرور الغير التي وقعت لأهليها في مسيرة العصور وهذا أكبر داعم لبقائنا اللغوي .

على أن اللغة العربية وسائر لغات البشر في حاضرها لا تصلح سبيلاً للحكم على اللغة الغابرة فقد تغيرت الألسنة وتحول المنطق فكيف نستطيع اليوم ان نطبق هذا المنهج اللغوي الذي يتعلق بطريقة الحكم بالحاضر على الغابر . لقد بدل الممثلون والرواية جميعاً ولا سبيل الى قبول هذه الطريقة في منهج الدراسات اللسانية .

وعند علماء اللسان طرق من نوع آخر ، يجعلونها منهجاً لأبحاثهم اللغوية كطريقة المقابلة بين اللغات وهذه الطريقة مفيدة إذا كانت اللغات المراد الحكم على أصالتها ، وألفاظها وتركيب جملها وحياة نحوها ، لغات من فصيلة واحدة كاللغات اللاتينية أو الجرمانية أو الانكلوسكسونية . فان هذه اللغات الثلاث يتشابه فيها الصوت اللغوي واللفظ والكلام . ونحوها قريب بعضه من بعض : وكذلك يكون الشأن في دراسة اللغات القديمة السامية كالسريانية والعبرانية وكذلك لغات آسيا الوسطى فالمجموعة اللغوية من التركية والفارسية والهندية تخضع الى

زمرة واحدة في هذا الباب المفتوح لطريقة المقابلة بين الألسنة ..

وكل هذه الطرق في منهج البحث اللغوي لا تجفف روح اللغة وانما تظل أدبية منيرة بالفن تجعل كل هذه الدراسات سبيلاً الى نقاء اللغة ومعرفة اسبارها الفنية في اللفظ والصوت والتآلف الكلامي كما تجعل ذلك معيناً لعلمي الاجتماع والجمال ومقيداً لعلم النفس لأن الصوت والكلام واللغة ظواهر اجتماعية وابداعية ونفسية.

أما الفقيه اللغوي الذي عليه أن ينهج افضل المناهج في بحوثه اللسانية فان نوبته التي يقوم بها نوبة خطيرة كل الخطورة عرف مثلها اللغوي أوغست شليشر Schleicher فلم تأخذه خلال بحوثه اللغوية احابيل الممخرقين السحرة ولا الأحداث الغيبية . كما لم يصخ بسمعه لأهل التكلف والكلام المصنوع الذي لا جدوى فيه . فلقد كان شليشر رجل التجربة وعالم المنهج فإليه وحده يعود الفضل في الابداع العلمي في دراسة علم الأصوات ومعرفة بناء اللغات الأوروبية . وإذا عرفنا ما قال شليشر عن مهمة فقيه اللغة تلقاء المنهج العلمي كان لنا بذلك سبيل الى تفهم المنهج اللغوي الحديث . وقد نقل هوفيلاك في كتابه قولاً لشليشر هذه ترجمته(١):

« إن فقيه اللسان عالم طبيعي يدرس اللغة على نحو ما يدرس النباتي نباته . وعلى النباتي أن يجمع في دفعة واحدة مجموعة من العضويات النباتية ، فهو يبحث عن القوانين الثابتة في بنية تلك العضويات وفي نموها وليس يقصر بحثه وتنقيره على النباتات المفيدة ، وإنما تنال عنايته اخسّ النباتات المهملة بقدر ما تنال أكثرها نفعاً . فربما شغفه بحثا نجم سخيف تطلع اليه من بين الأعشاب فكانت عنايته به اكثر من الوردة السابية والزنبقة العاطرة» .

بمثل ذلك تكون نوبة عالم اللسان عند شليشر لأن عالم اللغات

(١) كتاب علم اللسان لهوفيلاك السابق ذكره ص ٦ .

بشري عام قبل كل شيء فهو يتناول اللغة الانسانية . أما نوبة الفقيه اللغوي فتختلف عن هذه السابقة . فالفقيه اللغوي كما يراه شليشر وهوفيلاك لا يحصر عنايته إلاَّ في المشاكل النافعة والأمور الخاصة فهو يفتش على جمال الأشكال اللغوية وتلاوينها وعطورها فنبتة غير نافعة لا قيمة لها في نظرة[1] .

وعالم اللسان وفقيه اللغة . وان يكن الأول مشغولاً بالآثار الصوتية للغات عامة او اللغة خاصة وكان الثاني متعلقاً بدراسة اللغة في فنها الكلامي وجمالها في المفرد والمركب فكلا العالمين سالك في بحثه منهجية علمية على نحو ما ذكرت لكم من أسباب هذه الدراسة المنهجية اللغوية .

٢ ـ تاريخ البحث اللغوي :

لا جرم أن هذا الفصل يتناول الكلام على تاريخ البحث اللغوي في لغتنا العربية وفي اللغات الحية . فمما لا ريب فيه ان حالة لغتنا التي بلغت فيها في آخر عهد رقيها لم يكن أمراً مفاجئاً وإنما كان مرهوناً بالتدرج الزمني ومقروناً بالوضع الاجتماعي والأدبي . وإذ كان في مادتنا الدراسية المتعلقة بتاريخ العلوم العربية مندوحة عن الاستفاضة في تاريخ البحوث اللغوية عند العرب ، فلنعلم المامه عند الغربيين من تاريخ هذا الموضوع .

يبدأ البحث اللغوي بصورة مجدية منذ أواخر القرن الثامن عشر حين عرف وليام جوينس[2] W.Jones الصلات بين اللغات . وحين تمم في أوائل القرن التاسع عشر بوب Bopp[3] ما بدأ به سلفه فوضح

(١) الاحظ أن شليشر وهوفيلاك يفرقان بين عالم اللسان والفقيه اللغوي .
(٢) عالم انكليزي باللغة الهندية (١٧٤٦ ـ ١٧٩٤) .
(٣) لغوي ألماني وضع نحواً مقارناً للغات الهندية ـ الأوربية (١٧٩١ ـ ١٨٧٦) .

هاتيك الصلات بين اللغات بشكل خاضع للمنهج. وكان لكتاب المعلمات اثر أول في الدراسة اللغوية في الغرب وخاصة في فرنسة فاسم ستندال وديديرو مقروناً بتلك البوادر اللغوية التي أقامت عماد المعاجم الجامعة عند تأليفها الأول.

وكان من بعد كتاب المعلمات علماء لغويون امتد زمانهم الى أيامنا على مسيرة السنين المتوالي وصنع اللغويون جميلاً في سبيل اللغة قبل ذلك منذ سانت أوغستان الفيلسوف ومن بعد، حتى برونشفيغ وسيروس النفسيين المعاصرين[1] وكان في تاريخ هذه البحوث اللغوية عند الغربيين دراسة مقارنة بين قواعد النحو في اللغات الهندية ـ الأوربية. وكم تفيد هذه المقارنة في نقاء العلل النحوية وترويقها. فكما يكون للأدب درس مقارن، فكذلك فان النحو المقارن من الدراسات اللغوية عند الغربيين. وكان الاتجاه الدراسي منذ فاتحة القرن العشرين أن يستفاد من اللغة كعنصر بان في الانسانية، إذا درست ظواهره وبواطنه، افادت في علم معرفة الشعوب Ethnologie وعلم البشرية Anthropologie وقد سببت هذه النهضة في معالجة اللغات تجديداً في علوم النحو فكان من فضلها مولد النحاة المحدثين Neogrammairien.

وكان من فضائل الأبحاث اللغوية عند الغربيين أن انفردت من بين علومهم العقلية والفلسفية علوم تتعلق باللغة والأصوات. فكان علم النفس اللغوي. وفيه يكثر المام العلماء بحوادث النطق عند الأطفال والأمم البدائية يستعينون بمشاهداتهم ويكونون احكاماً على ماضي اللغات. وان في هذا العلم بحوثاً طبية. فعلم النفس المرضي يمت بألصق سبب إلى اللغة فإن الأمراض النطقية المسماة Anhasie

---

(١) Searus مؤلف كتاب La langue Le sins La Pense بباريس ١٩٤١، Brunschvieg مؤلف كتاب Heritahe de mots بباريس ١٩٤٥.

ومشـاهدات اللكنـة والانقطاع اللفـظي المسمـاة surdité Verbal تحتـل مكانة رفيعـة في العلاقـة بين فقه اللغـة وعلـم النفس . كذلـك نشأ لـدى الغـربيين علم الاجتمـاع اللغوي وانضـم إلى مـوكب البحث في اللغة والبيان .

الفصل الرابع

علم الاصوات اللغوية

مثلما فرّق علماء اللغة الغربيون بين علم اللسان وفقه اللغة ، فجعلوا علم اللسان Linguistique بحثاً في نشأة اللغة الانسانية . وفي هذا البحث تداولوا النظريات والمقولات في اصل اللغة والتقليد لأصوات الطبيعة ، وأقاموا من مشاهداتهم لتدرج الكلام عند الأطفال احكاماً بنوا عليها اللغة عند الانسان كما في مذهب ماكس موللر وداروين والأب توماس ومذهب احمد بن فارس وأبو علي الفارسي وتلميذه ابن جنّي .

وجعلوا الى جانب ذلك فقه اللغة Philologie علماً تدور فيه الموضوعات على حياة الألفاظ وتطور التراكيب وانتقاء اوجه الجمال فيها ودراستها في اشتات الصور التي تتعلق باشتقاقها ومعانيها من حيث التضاد والتوافق والتواتر وما يشبه هذا .

فكذلك فان أولئك العلماء اللغويين الغربيين قد قسموا معالجتهم لقضية الأصوات الى فرعين . واحد جعلوه مدارسة للصوت من حيث انه حركة طبيعية تدخل في علم الفيزياء فكان الصوت اداة لتجاربهم التي يجرونها . وهم ان فعلوا ذلك فلا يعدون نطاق مختبراتهم العلمية في دراسة صوت وقياس اهتزازاته ومداه وارتفاعه وانخفاضه ، وهم يطلقون

على هذا العلم كلمة Phonétique.

والفرع الآخر من معالجتهم لقضية الأصوات جعلوه دراسة للصوت اللغوي وبيان أثره في تركيب الكلام في الصرف والنحو وفي خدمة الكلمات في بناء جملها، وتركيب هذه الجمل وهم يطلقون على هذا العلم كلمة Phonologie.

وهذه الدراسة تفيد عندهم في التعابير الموسيقية وفي رنات الأصوات التراجيدية في تمثيل الروايات، وفي فن الإلقاء وأغاني الأوبيرات.

فالصوت طبيعي في حفيف الأشجار وهدير النهر وانسكاب المطر. وحيوانيّ في الأطيار ساجعة على الأغصان وفي الوحوش بهماهمها وزئيرها في البيداء وهو إنساني حين يلفظه الانسان. ولقد يحس من يتكلم في مذياع ـ على نحو ما احسَّ عمر الفاخوري رحمه الله وكان من أدباء العصر ـ ان صوته ينطلق منه وينفصل عنه كجبار يمضي فيدوّي في الآفاق ويعبر الى عوالم لا تنتهي. فكأن كل متكلم وراء هذه الآلة المعاصرة التي ابدعها الانسان الحديث إله من آلهة الأساطير كجوبيتير وبروميتي، في طوقه ان يخلق وان يبرىء. ولو صح ما ذهب اليه بعض علماء الطبيعة في عصرنا من ان الأصوات كائنات حية لا تفنى فقد يأتي يوم يخترع فيه الانسان آلة تسمع صوت جوريس وخطب سحبان وائل. صوتاً لا يزال سامقاً منطلقاً في فضاء الله الذي لا ينتهي.

فالصوت الانساني عند علماء الطبيعة منفجر من حنجرة يدفعه نفس من الصدر. فهو اهتزازات وذبذبات كما يعبر علماء الصوت المعاصرون، وينقله الهواء فيحشو به المسامع. وكل اصوات الطبيعة والحيوان فيها سجاحة وسهولة عند درسها بالتجارب المرقومة على الآلات المقيدة. لكن الصوت الانساني أمر معقد كثير الالتفاف والالتواء يتحول في كل كلمة من فتح الى كسر الى ضم أو سكون أو امالة في كل

هذه الحركات . وقد يكون اقل تعقيداً حين يغنى فتخلع عليه الموسيقى ليناً يجمل مخارج حروفه . ولعل الموصلي كان الأبرع في هذا العلم حين اختار مائة صوت للرشيد غنّاها العرب وسارت بها الركبان . والصوت الانساني اكثر تعقداً لأنه متعدد . فلكل امرىء اسمه ووجهه وصوته . وبذلك وسم الله الانسان الفاني وتمتد هذه العقد حين يبحث في بهرة هذا العلم عن صوت الصغار والكبار والنساء والرجال.

وقد احتلت حيرة العلماء عقولهم في علم التشريح وعلم منافع الأعضاء Phisiologie anatomie فوجدوا أن حنجرة المغنية ذات الصوت المفتان لا تختلف في نظر هذين العلمين عن حنجرة امرأة ذات صوت اجش لا تعرف الغناء. فأية قدرة إلّهية أبدعها الخالق في أصوات المغنين.

لقد نطق الانسان الأول وقد يكون اعرب في نطقه فأبان وفق مقولات التوقيف الإلّهي أو الاصطلاح والتواضع أو أخذ بين الأمرين ـ وأنتم على ذكر لما تقدم من كلامي في هذا السبيل ـ فان فيما يفرض علماء الصوت ان الانسان الأول ارهف سمعه ثم كان نطقه وحين نطق لم يكن نطقه لغة وانما كان الفاظاً وأعان على تفهيمها الاشارات على نحو ما عند الطفل حين يبدأ بالتكلم.

وحين يتدرج الصوت في دراسة العلماء له فانه يخرج من علم الطبيعة ليدخل في علم النفس البسيكولوجيا.

من هذه المرحلة تبدأ دراسته اللغوية ففي سماعنا للكلمة تمثل لمعناها . وهذا التمثل مرتبط ارتباطاً نفسياً بين القول والمعنى . فكما تقرع الجرس الكهربائي فتسمع الصوت المرنان فكذلك تستجيب اذهاننا لمعاني الكلمات التي تسمعها وتؤلف هذه الأذهان بين المعاني على نحو ما هي عليه التراكيب والجمل ذوات المعنى .

ولا بد لنا لنلم بالقيمة العلمية لدراسة الأصوات من أن نعرف

أعمال الحلق واللسان وقبة الفم والحنكين ووظيفة المجرى الأنفي . فان لهذه الأعضاء والجوارح أعمالاً يقوم بها كل واحد منها عند نطق الكلمة والتلفظ واجراء الكلام . ما أشبه ذلك بآلة موسيقية ذات أوتار أو احجرة أو ثقوب يمر عليها الهواء الصوتي فتتقاذفه كل جهة من جهاتها لتخلع عليه وضعاً من أوضاعها فلا يمر بين الشفتين حتى يكون مخلوق الشكل والمعنى . ان أذهاننا هي التي تدرك معناه وشكله ويقيد حروفاً في الكتابة وينطبع في وعينا بهذه الحروف . لكنه يظل ابداً شكلاً ناقصاً في نظر العلم . فإذا شئتم ان تتبينوا شكل اللفظ فعلماء الصوت ينشرون بين ايديكم اوراقاً وقصاصات مسطورة طولاً وعرضاً كانت تجلس بسكون على لوالبها المخصوصة في اجواف آلاتها المسجلة . فلما تكلم المتكلم دارت هذه الآلات ورقمت الإبرة فيها على هذه الأوراق والقصاصات خطوطاً مهتزة أو متمادية وملتوية أو مستقيمة . هذه هي الصورة الحقة للكلام في نظر علم الصوت . ومن يدري ؟ فربما ترقى علم النفس الحديث ترقياً يكون معه وجود السبيل الى رسم المعاني التي تقوم بالفكر رسماً علمياً على نحو ما قيدوا الصوت ورسموه. فاسطوانة مسجلة بصوت منشد أو محدث قلبت حياة الصوت القديم أي انقلاب ، لقد تحول الكلام الى خطوط مستدير بعضها وراء بعض كالحلزون.

هذه هي الخدمة الجلّى التي جاء بها اوديسون وماركوني فكان لها فضل عظيم على دراسة الأصوات . وستعرف الأجيال القابلة قيمة هذه الدراسة التي سيكون في مقدورها ان تسمع قصائد الشاعر لترده حياً وهو رميم.

وأبسط تجربة في دراستنا لأصواتنا ان نضع اصبعينا في اذنينا ـ لا خشية من الصواعق ـ وانما لنسمع صدى اصواتنا في رؤوسنا . ومن وضع يده على جبهته وتكلم سمع رنيناً مغمضاً هو في التفسير العلمي ذبذبة الحبلين الصوتيين في عنقه.

وكان من فضل هذا العلم تصنيف الحروف في الساكن والمتحرك

واختصاصها في الجهر والهمس والعلو والانخفاض. وكان من الدراسات الأدبية فيه التطور اللفظي للحروف . فالصوت الحرفي مقيد في الزمان والمكان وعلى هذا التقييد بني برونو Brunot ولوبنياك Loubignac دراستهما للهجات العربية في شمالي افريقيا عند قبائل الزيان وزغوغو التي تمت بأصل الى العرب الذين كانوا يضربون في تلك الجهات في العصور التاريخية الاسلامية . فنحن لا نعرف متى انقلبت القاف في لغتنا الى همزة في عاميتنا . كان اجدادنا العرب يقولون (قعدت قبلك) فأصبحنا نقول (أعدت أبلك) . فأنا اسائل نفسي كيف تطور هذا الحرف فخرج من اعرابه الى عاميته.

ويظهر هذا التطور بوضوح حين تدرس الصلات التي بين اللغات ذوات الأنساب فاللاتينية التي انبثقت منها الفرنسية تعين على دراسة التطور الحرفي. فقد كان في الكلمات اللاتينية حروف فقدت حين دخلت في الكلام الفرنسي . فكلمة الماء في اللاتينية aqua فقدت شخصيتها حين دخلت في اللغة الفرنسية ـ وكنت حدثتكم في علاقة اللغة بعلم الاجتماع ان للكلمات شخصية على نحو شخصياتنا . فمنها القوي الذي يبقى ومنها الضعوف المهزول الذي يضيع في تضاعيف الزمان ـ فلما دخلت تلك الكلمة اللاتينية في لغة الفرنسيين وكانت من مقطعين a و qua اصبحت eau وهي مقطع واحد فلم يبق من صوتها اللغوي شيء في هذا التطور . انه استحالة métamorphose.

وقد عني بالتطور الصوتي ماكس موللر المستشرق الألماني الذي عاش في القرن التاسع عشر وتتلخص نظريته في التعبير اللغوي بهذا الميسم loi du moindre effort أي (ناموس المجهود الأقل) وقد احب موللر ان يطبق هذا القانون على اللغة فعلّل تطورها به زاعماً ان الناطقين يؤثرون العافية ويحبون السهولة ، وان لغة المتأخرين قد آثرت السجاحة على التعقيد فكان للحروف نصيب كبير من هذه السهولة وهي نظرية قائلة لأنها مبنية على الوهم فدراسة اللغة الواحدة في أدوارها السنوية خلال

العصور لا تدعم هذا المذهب . لقد كان هوغو يؤثر السهولة في التعبير ومثله الشعراء الرومانتيك ، فما بال بول فاليري آثر العسر والعماية في تعابيره فبذل مجهوداً في نظم الشعر اكثر من الشعراء السابقين وكلف قراءه كل جهد جاهد لتفهم معانيه وهم بأقل من ذلك الجهد يستسيغون شعر من قبله . لكن نظرية موللر تنطبق على التطور اللغوي الذي اسميه انقلاباً الى جهة الاسفاف فالألسنة تؤثر الراحة ولذلك فان كل لغة تخرج عند انحطاطها من الفصحى الى العامية . فكم يشعر العامي براحة حين يقول (دء ألبي) ولا يقول جاهداً (دقَّ قلبي) ويقول (ضليت معن) ولا يقول (ظللت معهم) .

ونستطيع أن ندرك تطور الحرف من الوجهة الصوتية في مثل اللفظة الآتية ـ ان كلمة Castélla تحولت الى castilla وينطق الأسبانيون بها castilya ولما جاء العرب الى الأندلس نطقوا بها قسطيلة وبعضهم قسطالة . فالصوت الحرفي (ɘ) في الأولى تطور الى (il) في الثانية ثم دخل في لغة جملة الف حين لفظوه قسطالة كما تحولت تاؤه الى (طاء) وكافه في الأسبانية الى ق في العربية . وقد لاحظت وأنا اتسمع الى اذاعة مدريد ان لافظ الراء عندهم يضاعفها ويشددها . ففي الأفرنسية نسمعهم يقولون radio وفي الأسبانية سمعتهم يلفظون rrradio مع أن نسب الحرفين واحد وهو اللاتينية .

وليت شعري بعد هذا البحث في علم الأصوات وعلاقة هذا العلم باللغة وكلماتها وحروفها هل تاقت انفسكم الى معرفة مقالة المستشرقين في الأصوات الحرفية للغة العربية ، وفي مذهب العرب انفسهم وعلماء لغتهم في ذلك ؟ . . .

من حسن الاتفاق ان وقع في يدي رسالة عنوانها La Langue Arabe et ses dialectes (اللسان العربي ولهجاته) وهذه الرسالة ألفها المستشرق Le conte de Landberg بمناسبة المؤتمر التاسع للمستشرقين في مدينة الجزائر وهي مطبوعة في ليد بهولندة سنة ١٩٠٥

قال مؤلفها في الصفحة (٢٠) منها[1]:

« لقد شهدت أمراً عجيباً . ففي مؤتمر المستشرقين في هامبورغ اسمعنا الأستاذ هيس Hess اسطوانة فيها اغنية قحطانية une chanson quahtanite لقد ألصقت أذني بالأنبوب (انه يشير الى الأنبوب الذي كان السامع يضع فتحته على اذنه ليتسمع الى الأسطوانة وكان التسجيل الصوتي اول ابداعه على اسطوانة مستديرة جوفاء) ثم يقول ، لم يفلت مني أي صوت . وقد شرح هذه الأسطوانة الأستاذ هيس في مجموعة المؤتمر صفحة (٣٠٢) ولكن ليس الشرح شيئاً امام حقيقة السماع لهذه الأغنية القحطانية (فان شروح الأستاذ هيس بهذا القياس (ورسم هٰهنا الكونت لندنبرغ في كتابه هذا الشكل ـ ـ ا ـ ن ـ ا ـ ن ـ ـ وهو يرمز إلى الخط المستقيم بالصوتي والى الخط المقعر بالساكن). ثم قال إنه لم يسمع هذه الحروف الصوتية احد حتى الأستاذ هيس نفسه . لكني تتبعت مداها وقيدت ذلك في الحال وسأذكر هذه الأغنية التي سمعتها من الأسطوانة في مقدمة الجزء الثاني من كتابي عند كلامي على لهجة سكان داطينا Datinah وقد ذهبت الى ان الاسم العربي الأصلي لها هو (ذا الطينة) .

فبهذا السماع وفنه عند هذا العالم اللغوي الذي سلخ عشرين عاماً يضرب بين القبائل العربية في لهجاتها الأسبانية يقول « ان تجاربي الثابتة منذ طويل السنين تسمح لي أن أؤكد ان بداة شبه الجزيرة الأندلسية وبداة سورية والعراق يظهرون (القياس الوزني) في اغانيهم (وهو يريد بذلك ان يربط بين اوزان العروض الخليلي وبين الأغاني البدوية إذ يعدها منحدرة عن ذلك الأصل في تطورها الزمني) وهو يبين ذلك بواسطة الأصوات المقيسة للحروف وتماديها في الغناء .

ثم يستنتج الكونت لاندبرغ من سماعه للأغنية القحطانية هذه

---

(١) المكتبة الظاهرية رقم و ـ ٢٦٣ .

النتيجة الخطيرة التي كان الفضل فيها لعلم الصوت فيقول « ان تلك الحروف الصوتية التي سمعتها في الأغنية القحطانية لم تكن إلاّ حركات الإعراب التي كانت في اللغة العربية الفصحى » وقد خدم هذا العالم لغة العرب من الوجهة الصوتية حين درس الصوت اللغوي العربي فسماه La phonémie Arabe واستنتج هذه النتيجة وهي ان الحروف الساكنة المقطعية لا وجود لها في لغة العرب وراح يناقش مستشرقاً سبقه الى هذه البحوث المتعلقة بالأبجدية العربية وعلاقتها بعلم الصوت وهو المستشرق سييفرس Sievers فنسب اليه الخطل حين زعم ان في لغة العرب كلمات تتركب من الحروف الساكنة ففي كلمة Bisnsla بسنسلة في لغة مراكشية ستة حروف ساكنة وفي آخرها حرف متحرك واحد. وهذا الخطل الذي أظهره الكونت لسلفه سبيقرس عائد الى المنطق العامي في اللهجة المغربية فالكلمة في اصلها بسلسلة . وبدراسة لندبرغ لأصوات الحروف العربية ينحت للتنوين كلمة صوتية فرنسية فيسميها La nunation كما صنع للميم في صداها الصوتي كلمة La mimation .

وقد درس الفاظاً عربية خضعت لناموس التطور قاسها بالصوت والمقطع فكلمة il + mu + kum عـل + م + كـم = علمكم = ثلاثة مقاطع . أما اليوم فهي في قول اعراب اليمن ilm + kum وهما مقطعان صوتيان.

وقد درس كلمات سورية في لهجتنا العامية من جهة التنوين . فقال يقولون في سورية (دائماً) بالتنوين وفي الجنوب يقولون (دوم) بغير تنوين .

أما فقهاء العرب اللغويون فلم يكونوا بمعزل عن علم الأصوات اللغوية . فقد عالجوا القضية الصوتية في حروفنا العربية . تكلموا عن الحروف الأبجدية وكيف اخترعت في حروفها الثمانية والعشرين وذهبوا مذاهب الرأي في أوليتها ثم صاروا الى قسمتها فجعلوها احرف حلق

وأحرفاً لسانية وأحرفاً شفوية . وقد وجدت ـ بعد التنقير ـ ان اجمعهم للمنهجية العلمية في هذه الدراسة الصوتية هو أبو يعقوب يوسف بن علي السكاكي صاحب مفتاح العلوم المتوفي سنة ٦٢٦ للهجرة[١] ، الذي عقد فصلاً خاصاً في صدر كتابه سماه (الحروف ومخارجها) وقسمها الى (مجهورة ومهموسة) وعرَّف ذلك تعريفاً علمياً صوتياً فقال (الجهر ، هو انحصار النفس في مخرج الحرف) و (الهمس ، جري النفس في مخرج الحرف) وألف جملة للحروف المجهورة هذا نصها «قدك اترجم ونطايب » والمهموسة ما عداها . ثم وسع هذا التقسيم الصوتي فجعله على خمسة أنواع .

○ **الأول** : إذا لم يتم انحصار الحرف ولا تم جريه كما في الحروف (لم يروعنا) فتسمى هذه الحروف معتدلة (أي بين الشديدة والرخوة) .

○ **الثاني** : إذا تم الإنحصار كما في حروف (اجدك قطبت) سميت (شديدة) .

○ **الثالث** : إذا تم الجري كما في الحروف الباقية سميت (رخوة) .

○ **الرابع** : إذا تبع الاعتدال ضعف يحمل الحركة أو الامتناع عن حملها كما في الواو والياء والألف سميت (معتلة) .

○ **الخامس** : إذا تبع تمام الانحصار حفز وضغط كما في قولك (قد طبخ) سميت (حروف القلقلة) .

ثم يدخل السكاكي في طور التجربة الذاتية والموضوعية للأصوات اللغوية في مخارج الحروف فيرسم لنا مخططاً تجريبياً لها هذه صورته (انظر الشكل في الصفحة ٦٣) .

---

(١) مفتاح العلوم طبعة التقدم بمصر سنة ١٣٤٨ صفحة ٥ .

وإذا درس السكاكي انخفاض الحروف وعلوها جعل الـ(ص، ض، ط، ظ، غ، خ، ق) موصوفة (بالمستعلية) . (والمنخفضة) ما عداها ثم يفسر الاستعلاء فيقول ـ هو ان تصعد لسانك في الحنك الأعلى. ويفسر الانخفاض بقوله (وهو خلاف ذلك) وأحسبه يود أن يقول (ان الانخفاض في النطق بالحرف هو الصاق اللسان في أرض الحنك ثم يسمي النطق ببعض الحروف (اطباقاً) و (انفتاحاً) فإن جعلت لسانك مطبقاً للحنك الأعلى كما في الصاد والضاد والطاء والظاء سميت الحروف مطبقة وان لم تجعل ذلك كما في سوى هٰذه الحروف سميت منفتحة .

ومخارجها عنده علىٰ منهج مرتب يبدأ من اقصى الحلق وينتهي بالخياشيم حسب الجدول الآتي :

الحلق

مبدأ وسط آخر

ء ا هـ ع ح غ خ

ض

حافة اللسان اليمنى ن ل

أصل اللسان ط ر ه ر

ق ك وسط

ج ش ي

حافة اللسان اليسرى

الأضراس اليمنى

الأضراس اليسرى

ن د ط

س ر ص ف ب م و

ث ذ ظ

الشفة العليا

الثنايا العليا

الثنايا السفلى

الشفة السفلى

المخارج الستة عشر

١	ء ا هـ	أقصى الحلق
٢	ع ح	وسط الحلق
٣	غ خ	أدنى الحلق الى اللسان
٤	ق	ما فوق اللسان من الحنك الأعلى
٥	ك	من اسفل موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى
٦	ج ش ى	من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى
٧	ض	من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس
٨	ل	من حافة اللسان من ادناها الى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية.
٩	ن	من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا العليا
١٠	ر	من مخرج النون غير انه ادخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه الى اللام.
١١	ط د ت	مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا
١٢	ص ز س	مما بين الثنايا وطرف اللسان
١٣	ذ ظ ث	مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا
١٤	ف	من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا
١٥	ب م و	مما بين الشفتين
١٦	النون الخفيفة	من الخياشيم

فما اصح ان اقول ليس بعد كلام السكاكي كلام في تطبيق علم الصوت لولا انني أؤثر ان أرد الفضل الى منبعه في هذا العلم فاجد ابا علي بن سينا اسبق الى كشف هذا البحث ومعالجته معالجة علمية باهرة

لأن ابن سينا كان طبيباً تشريحياً ولا تجدي دراسة الأصوات اللغوية في مخارج الحروف إلّا إذا احيطت بعلم التشريح وعلم منافع الأعضاء كما هي عند الغربيين . فقد اطلعت على رسالة ابن سينا في (أسباب حدوث الحروف)[1] ، ولم أكد اقف على اسم الذي الفت من اجله حتى عرفت السبب وان لم يذكر ذلك أبو علي في صدر رسالته . فقد ذكر في هذا الصدر أنه ألّف هذه الرسالة بطلب من الشيخ أبي منصور محمد بن علي بن عمر الخيام . فقال : « وقد التمس مني التماس مباسط لا محتاج ان اكتب باسمه ما حصل عندي بعد البحث المستقصي من اسباب حدوث الحروف باختلافها في المسموع » .

ورحت اذكر فيما كتبه ظهير الدين البيهقي عن الحكماء ، ان علاء الدولة صاحب الرّي سأل في قدر الحكيم ابن سينا احد مجالسيه ومنادميه عمر الخيام الشاعر الفيلسوف:

ـ ما تقول في اعتراضات ابي البركات بن ملكان على الحكيم ابن سينا؟

فقال عمر الخيام:

ـ أبو البركات ليست له رتبة الفهم لمقالة ابن سينا فكيف يكون له رتبة الاعتراض.

فلعل هذه الشهادة التي نفعت الضيف الفيلسوف عند علاء الدولة اثمرت عمرة الوفاء بكتابة هذه الرسالة الصوتية.

لقد قسم ابن سينا رسالته في الأصوات اللغوية الى ثلاثة فصول أولية وهي :

١ ـ سبب حدوث الصوت.

---

(١) منقولة عن نسخة محفوظة في المتحف البريطاني رقم ١٦٦٥٩ ومعارضة بنسخة الخزانة التيمورية رقم ٢٠٠ ـ طبعة المؤيد بالقاهرة سنة ١٣٣٢ .

٢ ـ سبب حدوث الحروف .

٣ ـ تشريح الحنجرة واللسان .

وكان من تعليله لحدوث الصوت انه مسبب بتموج الهواء ودفعه بقوة وبسرعة .

وبيّن الفارق بين (الصوت والقرع ، والقلع) .

وقال في قضية السماع (ان الصوت يتأدى الى الهواء الراكد في الصمّاخ فيموّجه فتحس به العصبة المفروشة في سطحه) . وعرّف الحرف انه (هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر) وقسم الحروف الى مفردة ومركبة . فالمفردة تحدث عن حبسات تامة للصوت تتبعها انطلاقات . والمركبة تحدث عن حبسات غير تامة تتبعها انطلاقات ايضاً . فالمفردة هي (الباء والتاء والجيم والدال والضاد والطاء والقاف والكاف واللام والميم والنون) وسائر الحروف مركبة . وهاكم مثالاً واحداً وفيه كفاية لمعرفة الأوصاف التي يخلعها ابن سينا على الصوت اللغوي الذي هو (الجيم) فيقول فيه :

الجيم : يحدث من حبس بطرف اللسان تام وبتقريب الجزء المقدم من اللسان من سطح الحنك المختلف الأجزاء في النتوء والانخفاض ـ ثم يطيل في أوصاف تتعلق بالجيم حتى تكاد تكون سلسلة عسيرة ـ لكنه قد يختصر الأوصاف كما في الهمزة فيقول :

الهمزة : تحدث من حفز قوي من الحجاب وتحصل الصدر لهواء كثير ومن مقاومة الغضروف الثالث الحاضر زماناً قليلاً لحصر الهواء ثم اندفاعه الى الانقلاع بالعضل الفاتح وضغط الهواء معاً .

واحسب أن المستفيد من دراسة هذه المخارج والأصوات اللغوية ينبغي ان يكون ملماً بالتشريح حتى يفوز بفهم جيد لأوصاف ابن سينا . وابن سينا الطبيب العظيم يأخذ هذا البحث التشريحي المتعلق بالحنجرة

واللسان من كتابه الطبي المسمى (القانون) فلا عليه آن يمزج الدراسة الصوتية اللغوية بالصفات التشريحية الطبية.

ولعمري انني لأؤثر في كلامي على هذا العلم أن أورد البحث موارد عالمين من أشياخ ادبنا وتاريخنا احدهما أبو عثمان الجاحظ والثاني عبد الرحمن بن خلدون.

لقد ذكر الجاحظ الأمراض الصوتية التي تصيب الفاظ الحروف وسمى فصلها فصل (الحروف التي تدخلها اللثغة)[1] فحصرها في احرف القاف والسين واللام والراء. وأبو عثمان صاحب طابع مرح في كل ما يكتب. فهو يدخل النادرة في جد الكلام. وقد فعل ذلك حين عرض على قارئه تحول الصوت في لفظ اللاثغين فجعل محل التجربة احد معاصريه فيقول: (وربما اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفين كنحو شوشي صاحب عبد الله بن خالد الأموري فانه كان يجعل اللام ياء والراء ياء. قال مرة: موياي وايبيّ ايبيّ يريد مولاي ولي الرّي).

وبعد ان يذكر الجاحظ اللاثغين الذين عرفهم يحط الكلام على لثغة واصل بن عطاء وخطبته النادرة التي ألفها على ألفاظ ليس فيها راء، ثم يندفع الى دراسة صوتية محضة في علم الأصوات فيبدأ باسم صوت ـ على طريقته ذات النوادر ـ فيقول:

« وقد يتهيأ من افواه الكلاب العينات والفاءات والواوات كنحو قولها (و و و ه) و(عف عف) فقد قيل لصبي من ابوك فقال (و و و و) لأن اباه كان يسمى كلباً » ثم يصير الجاحظ الى موضع علمي في كلامه على الصوت اللغوي فيقول:

« والصوت هو آلة اللفظ وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا

---

(١) البيان والتبيين الطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ ج ١ ص ٢١/٣٦/٣٩/٤٥.

منثوراً إلاَّ بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاماً إلاَّ بالتقطيع والتأليف » .

وإذا كان لكل أديب أو عالم طابعه الملازم لأسلوبه ومنهجه في البحث والتأليف فاننا نجد ابن خلدون صاحب المنهج الاجتماعي الذي اعده من مؤسسي علم الاجتماع قد عالج قضية الصوت اللغوي في مقدمته الجامعة عند كلامه على اللهجات المعاصرة فقال[1]: « ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار (امر) النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند اهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية انه من اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها ايضاً من مخرج الكاف وان كان اسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي ، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل اجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصاً بهم لا يشاركهم بها غيرهم » .

على هذا النحو يستخرج المؤرخ المنهجي ابن خلدون حكماً من دراسة صوتية في تحول الحرف من ق الى ك أو ما يقرب من ذلك . ويسم العرب المعاصرة بميسم نطقي واحد في شرق الأرض وفي غربها . فالجاحظ يدرس آصواتاً لغوية في مخارج الحروف لدى اللاثغين فيجعلها سبيلاً لبيان المنطق ولا عليه في هذا السبيل أن يتندر، وابن خلدون يدرس لهجة العرب في عصره وكيف ينطقون بالقاف ويجعل ذلك وسيلة الى الحكم الاجتماعي اللغوي على كلام أهل عصره.

وبعد فلا تثريب عليَّ في أن اختم محاضرتي اللغوية هذه بان العرب عرفوا علم الأصوات في اللغة وقد افادوا منه (فائدة ترتيلية حين

---

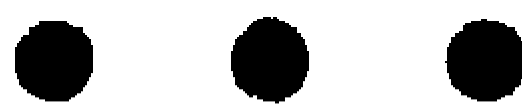
(١) المقدمة ، الطبعة الأخيرة لدار الكشاف ببيروت سنة ١٩٤٨ ص ٥٥٧ .

ابتدعوا التجويد في قراءات القرآن الكريم) . وللتجويد أثر صوتي في تجميل الشعور الديني وحسن الترغيب في سماع القرآن﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ .

ولعلم الصوت اللغوي فائدة في دراسة الشعر وانشاده . فنحن لا نعرف كيف كان أبو الطيب المتنبي ينشد شعره . وما كانت طبيعة صوته وكل ما نعرف من امر انشاده انه حين اتصل بسيف الدولة في انطاكية ـ وكانت امارة لأبي العشائر العدوي ابن عم سيف الدولة وزوج اخت أبي فراس ـ طلب المتنبي الى سيف الدولة ان ينشده الشعر جالساً فقال الرواة: « نسب المتنبي يومذاك الى الجنون » .

ونحن لم نسمع البحتري كيف كان ينشد شعره . لكنّا عرفنا انه كان إذا حلا له الانشاد تلفت يمنة ويسرة فصنع أموراً أخذها عليه النقاد وبها تنقصوا انشاده . ولو عرفنا كيف كان يلفظ الشعر شعراؤنا السابقون لأفدنا من طرائق نطقهم وبيان وقفاتهم ، وتسرّد الفاظهم ومدّ اصواتهم . فانخفاض الصوت وارتفاعه له اثر في قيمة الكلام المقول.. كذلك يفيدنا علم الأصوات في دراسة الكلمات الموسيقية عند الشعراء كأبي تمام والشعراء الصناعيين والغنائيين وأهل سجع المقامات فانهم كانوا يؤثرون الألفاظ ذوات الرنين واللحون.

وقد حدثت ان التلاميذ في معهد الحقوق بباريس تدار عليهم في درس فن الإلقاء اسطوانات القائية مسجلة من بينها واحدة للمثلة العظيمة (سارة بيرنار) يصيخ اليها الطلاب باسماعهم وأرواحهم وهي تلقي كلامها على مخارج حروف يترقرق فيها الفن والعبقرية ويسطع خلالها السحر الحلال .



الفصل الخامس
اللغة العربية واللهجات

١ - أصول اللغة العربية :

يهتاب القول من يهجم على هذا الموضوع . فالكلام على أصول اللغة العربية يعوزه نصوص علمية فما هو الزمن التاريخي المؤكد الذي بدأ فيه تكون العربية ؟ وما الكلام الأول الذي بدر من الأفواه عند مولد هذه اللغة ؟ .

تلك أسئلة يطرحها على نفسه الباحث اللغوي ويتظنى ما شاء له التظني . فما تاريخ الشعر العربي في الجاهلية إلاَّ مرحلة اخيرة للتكامل اللغوي في مهد العرب. ونوبة امرىء القيس على ابن حزام الذي علمه بكاء الديار ، والوقفة على الطلول تدعونا الى السؤال عن الذي علم ابن حزام تلك الوقفة وطبعه على البكاء.

فالأمم البائدة في الجزيرة العربية القديمة ومنهم قوم عاد وثمود وجديس وطسم والعمالقة كانوا عرباً . فما طبيعة لغتهم وما نحوهم وصرفهم . وهل كان لهم شعر . وما وزن هذا الشعر . لقد ذكر في كتاب المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ[1] شعر قالته (غفيرة بنت

(١) طبعة السعادة بمصر سنة ١٩١٢ ص ٢١٤ .

غفـار) عظيم جـديس تدعـو قومهـا الى ثورة اخـلاقيـة ، وتحملهم بهـذا الشعـر على قتل الملك عمليق الـذي كان ظـالماً غشـوماً مستبـداً بـطسم وجديس .

لقـد قرأت هـذا الشعر فلم اجـد فيه ، على عتقـه وغياب الـوثـائق العلمية عن عهده الا شعراً (عادياً) قيل مثله في عصـور الاسلام . وقـد ذهبت الى ان هذا الشعر موضوع . وقد بني على سيرة اخـلاقية . واكـاد اعده من اساطير العرب الأقدمين ـ ان كان في تاريخهم اساطير ـ وهو من صنـع القصاصين والـظرفاء على ألسنـة القدامى . لأن اللغـة العـربيـة في عصـر جديس لم تكن هـذه التي قيل فيهـا ذلك الشعـر . (فلولا القـرآن الكريم الذي ذكر لنا اسمَ عاد وثمود، وخبرنا عنهم لما كان لهم في دهـرنا العـربي أي ذكر لفقـدان النصوص العلميـة التي تعـود لتلك العهـود[1] . ومهما حاولنا في دنيـا الظنون ان نفترض شكلاً للغتهم فلن يقوم لنا بحث على اساس مقبول[2] . ومثل ذلك يعرض لنا اذا سألنا نفوسنا عن تـاريخ الانقسام العام للقبـائل العـربية من وجهـة اللغة . وذلـك الانقسام الـذي شطر العرب الى شـطرين كبيرين وهمـا : القحطانيـون، ومنازلهم الأولى اليمن ، والعـدنـانيـون ومنـازلهم الأولى في أرض الحجـاز فكيف تكـون هذان الشطران وما حالة العرب قبلهما ؟. وما هـو العهد الصحيـح الذي تحولت فيه اللغة العبرانية والكلدانية الى عربية ؟. وما هو العهد الصحيح الذي تحولت فيه اللغة العبـرانية والكلدانيـة الى عربيـة ؟. وكيف تسمى هذا القوم الجديد ، بالعزب . وما هو الطور اللغوي الذي استحالت فيـه

---

(١) راجـع كتاب تـاريخ اللغـات الساميـة تأليف ولفنسـون ط الأولى ١٩٢٩ بمصـر بلجنـة التأليف والنشر ص ١٧١ .

(٢) حين اتكلم على اللغات السامية سأذكر لكم ما وقفت عليه في كتاب Introduction à l'etude des langues Sémitiques لمؤلفه Henri Fleisch من عثور السيد Duasaud وزوجته سنة ١٩٢٩ على نصوص حجرية ووثائق تاريخية من عهد اللحيانيين والثموديين والصفائيين من العرب البائدة في أرض العرب القدامى .

تلك اللغة الى لغات قبائل ولهجات . انْ دراسة الفاظ بأعيانها تعين علم اللغة المقارن على الحكم بوجود الألفاظ المتقاربة والمعاني المتوافقة بين زمرة اللغات السامية . وههنا يجد العقل نفسه في حيرة شاملة حين يندفع للتنقير عن أزمنة هذا التقارب والتوافق بين الألفاظ والمعاني في اللغات السامية . والبحَث التاريخي ، عن الأمم التي كانت معاصرة للعرب في الجاهلية وفي أعماق الجاهلية كل ذلك يدعو عالمٍ اللغة العربية الى منازع شتى في طريق الحكم . فهل كان الأنباط عرباً . وما شأن البابليين في لغة العرب الأوالي . فقد ثبت لدى علماء التاريخ ان الحضارة النبطية عربية ، وحضارة البابليين وشكل شريعتهم في زمن حمورابي عربية ايضاً . والعالم اللغوي مجبر على أن يخلص بعد البحث الطويل والصبر الجميل الى هذه النتيجة .

(ليست في طوق الدراسة اللغوية ، التي انتهى اليها علم اللغة العربية عند الغربيين والشرقيين ، ايضاح لنقطة الانفكاك بين الشعوب القديمة والشعب العربي الأول . والصلة لا تكاد تظهر بين اللغة العربية التي صارت الينا كاملة وبين نسبها العتيق وتطورها العلمي . والباحث ليس على وقفة ثابتة حين يستقرىء الصلات بين اللغة الحميرية والسبئية والحبشية والنبطية وبين هذه اللغة العربية التي ورثناها عن الجاهليين . ومهما عمقنا دراستنا للهجات العربية فلن نفوز برأي واضح وفكرة علمية صحيحة عن هذا التطور المباعدة حقائقه في أسبابه ونتائجه) .

وقد انتهى علماء اللغة العربية إلى ان الشعب القحطاني كان اسبق الى العربية من الشعب العدناني وان ثمة فوارق لفظية ومعنوية بين هذين الشعبين . ومصداق هذا ما قاله أبو عمرو بن العلاء وهو احد الرواة اللغويين الأول . (وما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) تلك قولة قالها هذا الامام اللغوي فضاعت بين سمع اللغة وبصرها حتى حققتها الدراسة اللغوية المعاصرة . فقد اثبت البحث اللغوي الحديث ان الفرق بين اللغة الحميرية واللغة العربية يشبه الفرق

بين اللغة العربية أو السريانية واللغة العربية . فأية سنين متطاولة كانت تفصل العرب الحميرين والعرب الفصحاء الذين نزل بلغتهم القرآن الكريم . كل هذه الفجوة كائنة في تاريخ لغتنا العربية حين نعمد الى تعميق البحث عن اصولها ونتائجها .

ما اشبه البحث عن أصول هذه اللغة بالبحث عن المعادن في اخاديدها أو التنقيب عن الآثار الخاليات . ومن رأى محاولات المستشرق الأستاذ غويدي[1] عن أصول اللغة العربية خامرته الدهشة فيما يرى. ان بين ايدينا حفنات من اثرنا اللغوي العتيق في بداءاته وكماله . فقد كان للعربية بداءات قبل الجاهلية ، وكان لها تكامل في أواخر الجاهلية . وقد أعرب احمد بن فارس[2] عن خواطره في وفرة هذه اللغة فقال : (ذهب علماؤنا أو أكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل. ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير) . فما اصح هذا القول من الامام ابن فارس إذ يتبع قوله بهذا التعليل (لأننا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب ، فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان) . وتظهر حيرة اللغوي ابن فارس في تفسير كلمات قديمة ، فيقف مبهوتاً عند كلمة (اجدم وحدج) فيقول (لا نعلم احداً فسر هذا) وهو باب يكثر في لغة العرب . حتى انه حين يفتح باب التعليل والتقريب ويدخل الاحتمال على معاني الكلمات العربية العتيقة المستبهمة يقول (والوقوف على كنه ذلك معتاص) . وهو يسهل أسباب النقد اللغوي في دنيا المعاني . فهو لا يعلم بالتحديد ما الفرق بين الحين والزمن والدهر ويكشف بوضوح عن جهالتنا للمعاني العربية العتيقة وعجز التعريفات اللغوية التي صارت الينا عن ان تحدد معاني تلك الكلمات فيقول :

---

(١) Guidi.

(٢) الصاحبي ص ٣٤.

(كان لذلك كله ناس يعرفونه . وكذلك يعلمون معنى ما نستغربه اليوم من قولهم : غبسور وعيسجور : وفرس اشق افق خبق : ذهب هذا كله بذهاب أهله ولم يبق إلاَّ الرسم الذي نراه) .

وتظهر حيرة ابن جني كذلك عند معالجة قضايا لفظية أو نحوية في لغة العرب لا يعلم لها سبباً ولا علة إلاَّ انها جاءت عن العرب على تلك الصورة ، فمن مطارحاته اللغوية قوله[1] .

فقد تجد في اللغة أشياء كثيرة غير محصاة ولا محصلة . لا تعرف لها سبباً ولا تجد الى الاحاطة بعللها مذهباً . . . من ذلك انهم عدلوا فعلاً عن فاعل في أحرف محفوظة وهي ثُعَلْ وزحل وغُدَرْ وعمر وزُفَرْ وجشَمْ وقُثَمْ . . . ولم يعدلوا في نحو مالك وحاتم وخالد وغير ذلك فيقولوا ملك ولا حُتَم ولا خُلَد ، ولسنا نعرف سبباً أوجب هذا العدل في هذه الأسماء دون غيرها فان كنت تعرفه فهاته : وكلمة (فهاته) التي يوردها أبو الفتح بن جني فيها كل الاقبال على محبة البحث وفيها الى جانب ذلك كل التعجب من هذه اللغة التي جاءتنا ولا نعرف في كثير من احوالها سبب ذلك ولا العوامل فيه . على ان في دراستنا للهجات العربية سبيلاً الى تعليل هذا التطور اللغوي في الفاظ العربية . وقديماً كانت التعلة شفاء حتى في البحث الناقص والحقيقة المجهولة .

٢ ـ دراسة اللهجات العربية :

إن مجموع الظواهر اللغوية التي تتعلق بموضوع اللغة في طريقة ادائها يسمى لهجة، ويكون قوام اللهجة حركات الإعراب التي تتخذ مكانها الدائم والمتجول على الحروف الساكنة والمتحركة وكما يكون لكل لغة وصفها المخصوص بها ، فكذلك الشأن في اللهجات . ولم تخل لغة انسانية من عدة لهجات . ومجموع هذه اللهجات يشكل لغة .

---

(١) الخصائص ص ٥١ .

ووجود اللهجات منتوج اجتماعي يحمل عليه تمازج بعض الشعوب ببعض، وذوبان قبيلة في قبيلة ، وأبسط مثال على اللهجة هو ما نراه في حياتنا الحاضرة من طبيعة اللفظ في سورية والعراق ومصر وبلاد المغاربة . فبين طريقة الأداء اللفظي عند سكان الشمال الأفريقي ، وبين طريقة الدمشقيين في هذا الأداء مجال يتسع لدراسة تستوعب السنين تجاربها . فكلمة واحدة شامية نستعملها في لغتنا العامية قد نجد لها لفظاً منحرفاً عن لفظنا عند الأمم العربية المجاورة .

عاينت حين كنت في مصر طائفة من الفاظ المصريين ورددتها الى ما يقابلها في لغتنا الشامية فوجدت مسافة الخلف واسعة بين اللهجتين . فحرف (الشين الاستفهامية والاثباتية) التي هي (كَسْح Suffixe) في كل كلمة صدرها نفي أو استفهام في لغة المصريين المعاصرين يكاد يملأ لهجتهم في كلامهم اليومي . ونجد هذه الظاهرة في لغة اهل فلسطين قليلة محدود استعمالها حتى اذا بحثنا عنها في لغتنا اليومية لم نقف لها على وجود .

فإذا ارتفعنا من بيئات العامة الى آفاق الخاصة ، وعدنا بالزمان من عصرنا الى عهد العربية الأولى ، جئنا بلاد العرب وهي في روعة حياتها اللغوية فإذا نحن امام لهجات تظهر جلية في صقع وتختفي في صقع . واشد ما نراها ظهوراً في لغات القبائل زمن الجاهلية ، حيث كانت اللهجات العربية محصورة في ارض العرب .

وقد وضع علماء اللغة الغربيون منهجاً لدراسة اللهجات بنوه (على الصوت ، وبنية الكلمة ومعناها ، وتأليف الجمل) . وهم حين يمارسون دراسة اللهجات بواسطة الصوت يعترفون أن الكلمة تظل أبداً دون الحقيقة في قليل أو في كثير لأنهم يعلمون ان التلفظ بالكلمة الواحدة يختلف لدى اللافظين . وليس بمقدور أي انسان ان يقرأ بيتاً من الشعر مرتين في شكل لفظي واحد تنطبق حركات تسجيله على حركات الآخر . فآلة

النطق من الحنجرة الى الشفة لا تقوم بعملها نفسه مرتين ، إذ لا بدَّ من مخالفة . وقد تكون مخالفة جزئية . فإذا عرف علماء اللغة ذلك فأتى لهم ادراك الحقيقة في تتبع اللهجات اللغوية في شعب واحد أو في عدة شعوب . وقد يكون استقصاء الكلمة في مبناها ومعناها اكثر اصابة في اللهجات من الدراسة الصوتية وكذلك حال الجمل عند عرض تركيبها على التمييز.

أما تكون اللهجات فخاضع الى أسباب اجتماعية كما قلت آنفاً . فصراع الشعوب يمضي في ركب واحد مع الصراع اللغوي ، ولعل كل قبيلة عربية في الجاهلية غلبت الأخرى اشاعت فيها لهجتها وأدارت على ألسنتها كلامها . وقد ظهرت هذه الحالة جلية لدى علماء الاجتماع في هذا العصر . فان الدول المستعمرة تطبع الأرض التي تنزلها بطوابع اللغة الى جانب طوابع السياسة . انظروا الى سكان افريقيا الشمالية الذين انقضى عل استعمارهم اكثر من مائة عام . ان لغة الفرنسيين شاعت في بلادهم حتى اختلطت بلغتهم العامية ، كما ان انقطاع افراد الشعب الواحد لأنفسهم يحصن لهجتهم ، فأهل نجد تختلف لهجتهم عن الساحل الغربي المطل على البحر الأحمر ، لأن هضبة الحجاز تفصل بين الصقيعين . وعرب الجنوب الذين اجتمعوا في انحائهم نمت فيهم لهجة عربية تختلف عن لغة أهل الشمال . وهذا منتوج جغرافي تصير اليه الأمم حين تفصل بينها الحدود الطبيعية كالجبال والأنهار ، فإذا درسنا لغة القلة في أمة من الأمم حين تكون محصورة في منازل خاصة ، فاننا نجد فرقاً كبيراً بين لغة هؤلاء ولغة قومهم وهاكم مثالاً معاصراً على ذلك : فاننا نجد لهجة اليهود في شرقي دمشق ـ إذ يسكنون في حيهم ـ منطوين على انفسهم مخالفة للهجة السواد في دمشق وللهجة قراها ، وكذلك الحال في لهجات أهل القرى والدساكر والكفور.

وإذا تساءلنا عن المبدأ الذي ينبغي ان تصدر منه دراستنا للهجة عرب الجاهلية ، وجدنا انفسنا في حرج من هذا البحث ، فما لا طوق

لمعرفته في هاتيك اللهجات ، كان قبل عصر الشعر الجاهلي . فمنذ كان الشعر الجاهلي وهو في اقصى التبعيد لا يتجاوز مائة وخمسين عاماً قبل الهجرة ، تبدأ دراستنا للهجات العربية .

فلست اشك في أن عرب الجاهلية كانوا على لهجات مختلفة ، وذلك أمر يحمل على الاعتقاد به نظامهم القبلي وتفرقهم وانعزالهم قبيلاً عن قبيل . ويعين عليه الشواهد التي أوردها علماء العربية الى فنون اللفظ ومعاني الكلمات ، وكثرة المزدوج والمترادف على المعنى الواحد أو القريب منه (كالذي رأينا بعضه في دروس تاريخ اللغة العربية بهذا العام) . ثم لست ارتاب في امتزاج اللهجات حين تتلاحم هذه القبائل بدواعي المحالفة أو الغلاب . فقد وجد ذلك في طبيعة الحروب العربية في الجاهلية وكانت مغازي ومباغتات أو حروباً متطاولة دام منها البعض أربعين عاماً ، وتناسلت شروراً ودماء كما يشير الى ذلك زهير بن ابي سلمى في شعره. وما قصه علينا ابو عبيدة بن المثنى في النقائض وابن عبد ربه في وقائع العرب وأيامها ، فان في روح هذه الحروب والمخاصمات تأثيراً لغوياً في اللهجات العربية . وهناك حالات اجتماعية في أواخر الجاهلية وما قبل ذلك كالأسواق والتجارات والرحلات والحج ، كان لها سبيل الى نقاء هاتيك اللهجات وترويقها . وهذه الفكرة الاجتماعية أعانت بعض المستشرقين والدكتور طه حسين على أن يذهب ـ قديماً ـ الى أن شعر المعلقات أمر لا يزال قطع الرأي فيه معوزاً للبحث والمناقشة كشعر الجاهلية اجمع . ولست من هذا المذهب . ولعلَّ السوانح تواقي ببسط القول في كل ذلك وتمحيص حقائقه والوقوف على جدواه.

لكني أحب منذ الآن ألَّا أخلي هذه المحاضرة من مناقشة هادئة حول هذه الفكرة المتعلقة بالشعر الجاهلي ولغة العرب في الجاهلية ، لأن بعض المستشرقين يذهبون ومعهم أدباء معاصرون الى أن لغة العرب في الجاهلية كانت على نوعين واحد كأنه لغة المحادثة وآخر كأنه اللغة

(الـرسمية) المتفق على اعـرابها وشكلهـا الفني وعلى هذا بنى اللغـوي السامي (ولفنسون) رأيه في كتابه القيم عن تاريخ اللغات السامية[1] وقد مـارس تدريس هـذا التاريـخ حيناً من الـزمن في الجامعـة المصريـة انـه يقول :

« وينبغي ألَّا ننسى ان الذي فني من (اللهجات العـربية) إنمـا هو لغة المحادثة السائرة العامة بين سواد القبائل صـاحبات هـذه اللهجات . وأما لغة الكتابة والنقوش ولغة الطبقة المفكرة من هذه القبـائل فقـد ظلَّت حافظة لكيانها من الزمن بعد فناء لغة المحادثة » .

فيظهر من قول هذا اللغوي السامي انـه كان للعـرب في جاهليتهم ـ وهو في صدد دراسة اللهجات في الجاهلية وقبيل الاسلام ـ لغة خاصـة وعامة . واحدة بين السواد العام وأخرى بين الـطبقة المفكـرة . وان اللغة الأولى فنيت أو ابتلعتها الثانية وعلى مثال هذا بنى ادباء معـاصرون رأيهم فيما يتعلق بالشعر الجاهلي وانه كان يمثل لغة عالية مصطلحاً عـليهـا بين القبـائل ، وكـل هـذا آراء قـائلة منقـوضـة لا أرى الفـائـدة تعـاجلني في دحضها .

هـذا نمط في دراسة اللهجـات الجاهلية واثارة للشـك في حقائق هذه اللهجات . ونمـــط آخر هو أن تكون دراسة اللهجـات في الجاهليـة سبيـلاً الى مناقشـات لا تنتهي حول حقيقـة الشعر الجـاهلي ، فقـد كـان يقـول الدكتـور طه حسين في سنـة ١٩٢٧[2] : « فنحن بين اثنين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العـربية من عـدنان وقحـطان إلى اللغة ولا في المذهب الكلامي ، وإما أن نعتـرف بأن هـذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها بعد الاسلام حملاً » .

---

(١) الطبعة السابقة المذكورة في هامش الصفحة الأولى من هذه المحاضرة ص ١٦٧ .

(٢) أنظر في الأدب الجاهلي الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧ ص ٩٧. وقد اعيدت الطبعة حديثاً كالقديمة .

وقد مارس الدكتور طه حسين في كتابه عن الأدب والشعر في الجاهلية الموضوعات ذاتها التي مارسها (ولفنسون) حول لغة العرب قبيل الاسلام وكيف سارت لغة قريش بلهجتها وضاعت مع سيادتها لهجات العرب الباقية وقد تكلما معاً على الأسباب الاجتماعية والسياسية والدينية في ذلك كله.

واللغوي ولفنسون يسعى سعياً علمياً في ايجاد الوسائل الأصلية بين اللغات السامية واللغة العربية وينتهي الى هذه النتيجة(١): « إن اللغة العربية تشتمل على عناصر قديمة جداً من اللغات السامية الأصلية وهذا يدل على ان اللغة العربية كانت موجودة في عهد اللغات السامية » .

وهو يحدد للهجات في عيشها وفنائها اعماراً فيقول: إن لجهات العرب في بلاد اليمن أخذت تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى في القرن السادس الميلادي ، ويعلل ذلك بالوضع السياسي في اليمن حين طغى عليها حكم الأحابيش ، وهھنا يمضي بنا هذا اللغوي الى دليل الكلام على لغة الشمال ولغة الجنوب وخاصة في السنين التي سبقت الاسلام حين كانت لهجات العرب الشماليين ذات سلطان فكانت تبلع اللهجات الجنوبية حتى سادت اللهجة الشمالية على أكثر اللهجات العربية .

يبدأ تاريخ الدراسة اللغوية للهجات العربية عند اللغويين العرب من أوائل عصر التدوين حين طفق علماء اللغة يضعون الفروق بين كلام القبائل (راجع كلامي على ابي عمرو بن العلاء التميمي في محاضرة تاريخ العربية في ١٩٤٩/٢/٥) وحين تحرى أولئك العلماء اللغويون في أنساب القبائل وما يتصل منها بالخلص الفصاح . انهم كانوا ينظرون للتأثير الجغرافي نظرة اجتماعية تتعلق باللغة . فكانت القبائل المتطرفة موضع شك لديهم في صحة لهجاتها ، حتى حصروا نقاء اللغة في

---

(١) المصدر نفسه من كتابه ص ١٦٨ .

أواسط الجزيرة وفي قلبها في قبائل قديس وقيس وأسد وتميم وهذيل وهوازن.

وكان من جملة الدارسين للهجات العربية ابن جني فهو في خصائصه ص ٤١١ يضرب مثالاً على الكشكشة، والكشكشة لهجة من لهجات العرب في جاهليتهم كانت ربيعة تتداولها بألسنتها فهي حين تريد أن تقول: « اكرمتك تقول (اكرمتكش) و (عجبت منكش) . ومضى ابن جني في بحث اللهجات القديمة في الجاهلية فقال[1]: « حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة وتضجع قيس ، وعجرفية ضبه وتلتلة بهراء ، فأما عنعنة تيميم فإن تميماً تقول في موضع أن ، عن تقول : عن عبد الله قائم ، قال وسمعت ابن هرمة ينشد :

أَعَنْ تفنت على ساقٍ مطوقةٌ ورقاءُ تدعو هَديلاً فوق أعوادِ

وأما تلتلة بهراء فانهم يقولون تعلمون وتفعلون وتصنعون بكسر أوائل الحروف ، وأما كشكشة ربيعة فانما قولها مع كاف ضمير المؤنث انكش ورأيتكش وأعطيتكش تفعل هذا في الوقف فإذا وصلت اسقطت الشين » . ويقبل ابن جني هذا الاستعمال عند الضرائر في الشعر والسجع[2][3].

ومن ههنا نشأ القول باللغتين والاصابة بتقبل خيرهما في اللفظ والاعراب ثم يدعو ابن جني إلى الإصطفاء اللفظي وأعمال التخير فيقول[4]: « والعرب وان كانوا كثيراً منتشرين وخلقاً عظيماً في أرض الله

(١) الخصائص ص ٤١٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٤١١.
(٣) لم يشرح ابن جني التضجع ومعناه في اللغة التعقد، ولا شرح العجرفية ومعناها قلة المبالاة ومعناها التسرع ومثل ذلك عجعجة قضاعة كالراعج للراعي .
(٤) الخصائص ص ٤١٥.

غير متحجرين ولا متضاغطين فانهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة فبعضهم يلاحظ ويراعي أمر لغته كما يراعي ذلك من فهم أمره» .

ونستفيد في دراسة اللهجات العربية في قراءة القرآن الكريم فقد ورد عن النبي (ص) أنه قال[1]: «نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف» . وقال أعلام القرّاء انه يتلى على سبعة أحرف . وطفق علماء العربية يشرحون هذه الأحرف واللغات وما يراد بها واختلفوا في ذلك حتى قيل ان السيوطي أورد في كتاب سماه (الاتقان) أربعين وجهاً لتوضيح هذه القراءات واللغات والمقصود بها[2]

وقد أورد ابن جني في خصائصه[3] حادثة لغوية تتعلق باللهجة في قراءة القرآن الكريم . وقد عني في ان يعنعن روايتها على نحو ما تروى الأحاديث النبوية حتى ذكر كتاب أبي حاتم السجستاني المسمى (الكتاب الكبير في القراءات) . وفي الكتاب هذه الحادثة يرويها ابن جني بلسان السجستاني .

« قرأ علي اعرابي بالحرم (طيبى لهم وحسن مآب) فقلت له طوبى ، فقال طيبى فأعدت فقلت طوبى ، فقال طيبى . فلما طال عليَّ . قلت ـ طوطو . قال طي طي . أفلا ترى إلى هذا الأعرابي ، وأنت تعتقده جافياً كزّاً ، لا دمثاً ولا طَيِّعاً ، كيف نبا طبعه عن ثقل الواو الى الياء فلم يُؤثِّر فيه التلقين ، ولا ثنى طَبْعَه ، عن التماس الخفة هَزٌّ ولا تمرين وما ظنك به إذا خُلِّيَ مع سَوْمِه وتساند الى سليقته ونجره » .

هذا مثال من اللهجة اللغوية التي تتعلق باللفظ والنطق به من حيث

---

(١) المصدر السابق ص ٤١٠ .

(٢) صاحب كتاب (اللهجات العربية) الدكتور ابراهيم أنيس طبع دار الفكر العربي بمصر ص ٣٦ متوسع في هذا البحث فيما يتعلق بقراءات القرآن واللهجات .

(٣) ص ٧٧ .

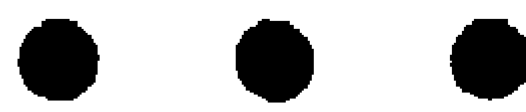
اللغة ، وأما المثال الذي يضربه ابن جني على اللهجة العربية فيما يتعلق بالإعراب وما سماه النحاة نحواً فهاكم الكلام عليه :

يقول ابن جني ، (وهذه تجربة لغوية موضوعية يجريها أبو الفتح عثمان)[1] :

سألت يوماً أبا عبد الله بن العساف التميمي . فقلت له : كيف تقول ضربت أخوك ؟ فقال : أقول ضربت أخاك . فأدَرْتُهُ على الرفع ، فأبى . وقال : لا أقول أخوك ابداً . قلت فكيف تقول ضربني أخوك ، فرفع ، فقلت الست زعمت أنك لا تقول : أخوك ابداً . فقال إيش هذا ، اختَلَفَتْ جهتا الكلام .

فبحسب المثال الأول أن يدلنا على قراءةٍ واحدةٍ للقرآن لنفهم مدى المعنى الكريم الذي أورده الرسول في تعميم القرآن إذ تستطيع كل قبيلة ان تتلوه بلغتها . وحسب المثال الثاني أن يفسر لنا سليقة العرب في الإعراب من غير أن يسمعوا بالنحو والتصريف .

وكل ذلك الكلام العربي مهما بحثنا في طبيعة النطق به وفي لهجاته فمصير الباحث فيه الى الكلام على لغة قريش التي كانت أصح لهجات العرب كافة ، وكان لها ان تعتز بلغة القرآن الذي أعزها وحماها .



(١) الخصائص ص ٧٨.

الفصل السادس
اللغات السامية

١ ـ السامية وعلم اللسان المقارن :

أول ما ينبغي لنا في الدراسة السامية للغة العربية هو أن نلم إلمامة كافية بالكلام على اللغات السامية عامة . وهذه الدراسة العامة تعيننا على ان نضع اللغة العربية في مكانتها بين اخواتها اللغات السامية . ذلك ما يقوله (هنري فليش) في مقدمة كتابه الحديث الذي سماه المدخل الى دراسة اللغات السامية[١] .

وانه لمن الصواب في دراسة اللغات السامية أن يحل الباحث علم اللسان المقارن محله من الاستعانة به والرعاية له ، فان المقارنات بين اللغات عون كبير لإظهار مزايا كل لغة على حدة وبالنسبة الى الأخرى . وكان من السباقين في هذا العصر الى هذه الدراسة اللغوية بالمقارنة (مييه Meillet) في كتابه الذي ألّفه سنة ١٩٠٨ ـ وجعله مدخلاً للمقارنة اللغوية بين اللغات الهندية ـ الأوروبية .

---

(١) ذكرت هذا المصدر في هامشي من المحاضرات السابقة وهو من منشورات Adrian maison neuve وهو مرجع علمي جليل يقول مؤلفه انه انتفع فيه بكتاب علامة اللغات السامية الأستاذ دورم Dhorm المسمى Les Langues et lesecritures Sémitiques .

والفائدة المتوخاة من معاناة البحث اللغوي بالمقارنة ما بين اللغات هي أن يتوصل الباحث الى تحديد الصلات بين اللغات ، وتوضيح العوامل المشتركة فيها ، وبذلك يستطيع النسابة اللغوي أن يروي لنا ـ على نحو ما يروى النسابون العرب ـ أنساب آباء اللغة المتدارسة وأنساب ابنائها . وكل ذلك مدين لجهود العلماء المعاصرين . وقد نتساءل عن منابت هذه المعاناة اللغوية المقارنة فلا نجد الأقدمين قد ابهوا لها . فان اليونان وقد كان في حوزتهم وبجوارهم أمم مختلفة اللهجات واللغات ـ لم يمارسوا اشباه هذه البحوث . ولو أنهم ، من عهدهم الأول ، وضحوا الصلات بين اللغات البربرية التي كانت معروفة في حوزتهم السياسية وما يتعلق بأمر المقارنة اللغوية بين اللغات التي عاصرتهم وبين لغتهم في عتيق الدهر . لو فعلوا ذلك لكان الفضل عظيماً فيما يمكن ان يقطفه علماء وقتنا من قطاف الجهود السوالف المتراكمة عصراً بعد عصر قبل يومهم هذا . فلقد كان بوسع الأقدمين ـ لو ابهوا لهذه الدراسات اللغوية المقارنة ـ أن يحظوا بالعيان والمشاهدة وبالسماع الكامل بما نتلهف عليه في عصرنا هذا وقد بعدت الشقة بيننا وبين أولئك المتكلمين الغابرين . لقد كانوا يستطيعون ـ لو فعلوا ـ ان يقارنوا بين الآرامية والبابلية ، وبين العبرانية والسريانية ، وبين اليونانية نفسها وأمها الهلينية القديمة مقارنات ذات جدوى عظيم على العلم اللغوي .

وقد كان الفلاسفة اليونان على علم بقواعد النحو في لغتهم ، لكنهم صرفوا عنايتهم كلها الى رعاية الأدب ومجادلات الفلسفة دون ان يرعوا اللغة نفسها حقها من الاستفادة التي كانت عهودهم مساعفة عليها في معالجتها وقياسها باللغات المجاورة ، ولا أبه لذلك الهنود القدامى وكانت لغتهم ـ كما لا تزال ـ مشابهة في حروفها ولهجتها اللغوية للغة الفارسية . على أنهم لو عنوا بالمقابلة اللغوية بين كلامهم وكلام الشعوب الآرية كالأفغانية والفارسية لفتحت اللغة السانسكريتيه عينها على الدنيا

قبل مولدها المتأخر.

وراح الدهر يكر بعصوره بالقرن السادس عشر والسابع عشر وما زال بحث اللغات المقارنة الآرية أو السامية كشأنه عند الأقدمين معدوم الوجود . حتى كان فلاسفة بور رويال Port - Royal ثم كان كونديلاك Condillac فأطلت المقارنات اللغوية كأنها قرن شمس بدأ بالذرور . ولم تحلم اللغات السامية بعهد دراسة إلاّ حين قام المستشرقون الساميون في العصور الأخيرة ، فقسموا اللغات السامية الى شراذم وفئات فميزوا بين العبرية والكلدانية (التي هي الآرامية) والعربية والحبشية .

وقد أعجبني الأستاذ (هنري فليش) في كتابه السابق حين أحَلَّ علماء اللغة العربية محلهم من الرعاية كابن جني والسيوطي صاحب المزهر ، فانه يعترف ان علماء العربية حاولوا دراسة الأصل اللغوي للانسان ، وانهم انقسموا الى فريقين واحد يقول بأن اللغة مخلوقة وآخر يقول انها مصطلح عليها ، ثم هو يذكر أنَّ « أبا زكريا يحيى » ويطلق عليه اسماً آخر عبرانياً هو: « يهوذا Jehuda » فيقول انه توصل في القرن الحادي عشر للميلاد ان يطبق علم النحو العربي على اللغة العبرية ، وقد جره ذلك الى أن يقارن بين هاتين اللغتين . وان اليهود تدارسوا اللغات القديمة فوجدوا العلاقة وثيقة بين لغتهم واللغة الآرامية وبين لغتهم والعربية ثم دعاهم الغلو الى أن ينساقوا معتقدين ان لغتهم هي الأم الأولى لكثير من اللغات البشرية .

ويضيف علماء اللغات السامية الى هذه اللغات الأربع السوابق لغة خامسة هي الأكادية التي كانت تكتب بالخط الأسفيني Cuneiforme فيتم لهم بذلك تعداد اللغات السامية وأقسامها . ومما يدهش له الدارس أن يذكر الأستاذ فليش ان كاستيللوس وهو أحد علماء اللاتين قد وضع معجماً للغات السامية بفروعها الخمسة طبع في لندن سنة ١٦٦٩ في مجلدين ضخمين لكن هذا المعجم لم يكن معجماً مقارناً وإنما كان

لغوياً لتبيان المعاني فحسب دون أن يشير الى الصلات بين كلمات هذه اللغات[1].

ويعد علماء اللغات السامية مولد اللغة السنسكريتية في القرن الثامن عشر هو الأثر العلمي الأول الذي أعانهم على المقارنة بين اللغات ، على نحو علم اللسان الآري . وقد كان أول هاد الى هذا السبيل احد القسيسين المرسلين الى الهند فقد كتب للمعهد العلمي الفرنسي سنة ١٧٦٧ مذكرة يشرح فيها العلاقة التي وجدها بين اللغة اللاتينية واللغة السنسكريتية . ولعلَّ القدر أراد أن يخلع هذا المجد اللغوي على عديد من العلماء الذين بذلوا الجهود في الحصول عليه فكان ان تأخر نشر المذكرة التي ارسلها أربعين عاماً ، حتى كانت بحوث وليام جونس عن العلاقات اللغوية بين الكلام الهندي والآري (كما ذكرت لكم في محاضرة سابقة عن البحث اللغوي وتاريخه) حتى كان فريدريك بوب من بعدُ العلم الأكبر في دراسة اللغات بأسلوب المقابلة والمناظرة وجاء هذا العصر فبرز اللغوي الأشهر مييه Meillet فحسن علم اللسان المقارن أيما تحسين فكانت الدراسة العلمية للغات الهندية ـ الآرية أسبق وأجدى من دراسة اللغات السابقة.

وقد أفاد علماء اللغات السامية من مناهج البحث في دراسات العلماء للغات الآرية وهم مع عنايتهم الفائقة بفرع اللغات السامية يتمنون ان يتاح للغات السامية دهر ينشر فيه معجم شامل للغاتها مقروناً بالمقارنة . لأن أي معجم لغوي لها لن يكون متوجه مثمراً إلاَّ إذا بني على المقارنة والمقابلة بين هذه اللغات المتقاربة المتناصية والتي يربط بينها نسب واحد.

أما جهد العلماء اللغويين الذي انصرف لمعالجة اللغات السامية

---

(١) ص ١١ رقم ٢ من كتابه المذكور سابقاً (هامش) .

معالجة قيمة فهو يبدأ منذ ارنست رينان حين نشر كتابه فيها سنة ١٨٥٥[١] ثم قفّى من بعده نولدكه Nöldeke سنة ١٨٨٧ بكتاب عنها قال فيه : « إن التاريخ العام للغات السامية الذي وضعه رينان فكتبه بالتماع عبقري أحدث في زمنه أثراً خطيراً على الرغم من أخطائه » ثم نشر سنة ١٩١٠ وليام مارسيه ، ترجمته للبحث القيم الذي الفه بروكلمان عن اللغات السامية[٢] ثم كان الأستاذ « كوهين » أحد أعلام السامية المعاصرين فنشر دراسات لها سنة ١٩٢٤ وكان في الآثار العربية القيمة في هذا الباب كتاب أبي ذؤيب Isra'il Wolfenshon في تاريخ اللغات السامية وقد كان أحد مصادري في المحاضرة السابقة عند بحثي قضية اللهجات والشعر الجاهلي وقد اهتدى فيه مؤلفه بهدى العالم السامي الأشهر «اينوليتمان» ولست أشك أنه استفاد بسهم وافر من محاضرات السنيور غويدي عن اللغات السامية في الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ .

٢ ـ تقسيم اللغات وتفرعها وخواصها :

إن كلمة اللغات السامية تركيب حديث لم يكن معروفاً قبل سنة ١٧٨١ وأول من اطلقه (شلوزير) فقد قال في مجرى خواطر كان يكتبها عن التوراة : « إن لغة واحدة هي التي تبسط جناحيها من ضفاف الحوض المتوسط حتى الفرات ومما بين الرافدين الى جزيرة العرب . وفي هذه البقاع شعب واحد هو الآشوريون والبابليون والعبرانيون والعرب وفيهم الفينيقيون وهم جميعاً يتكلمون هذه اللغة التي اسميها اللغة السامية » .

وشلوزير هذا ـ كما يذكر الأستاذ فليش[٣] وكما تتبعت الشاهد في سفر التكوين من التوراة ـ كان أول من ذكر في مؤلف علمي نسب

---

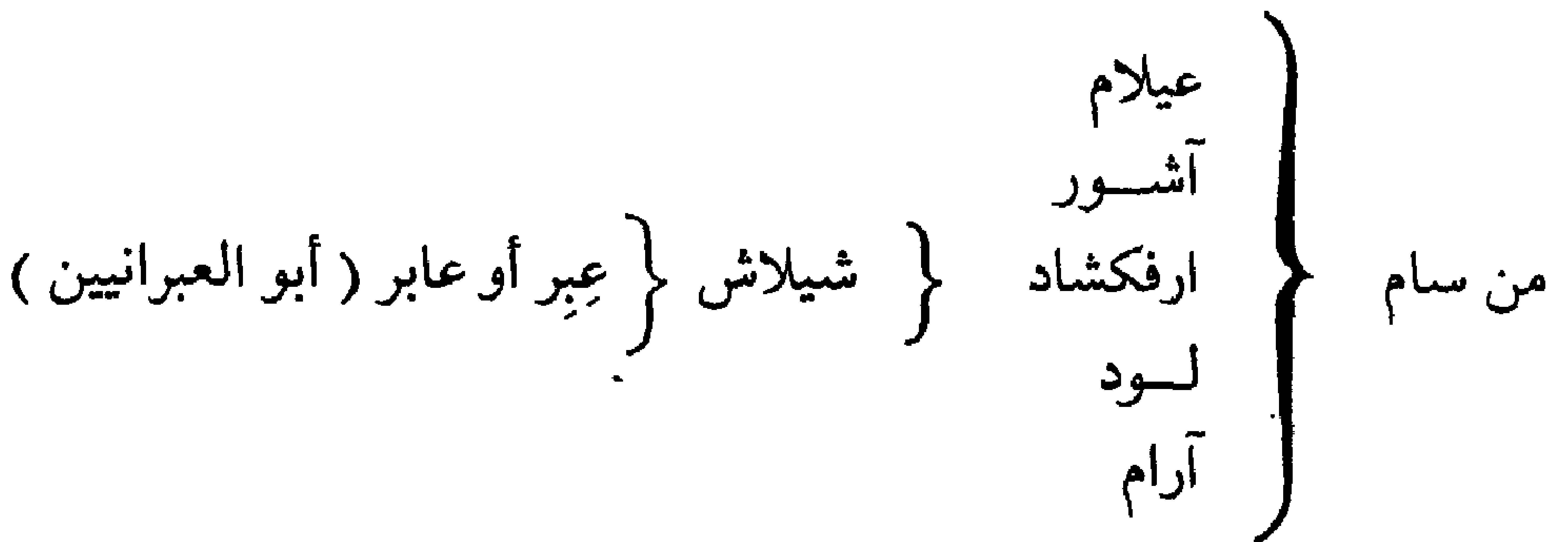
(١) Histoire Generale des Langues sémitiques .

(٢) Les racines Sémitiques .

(٣) ص ١٨ من المصدر المذكور على الصفحة الأولى من هذه المحاضرة.

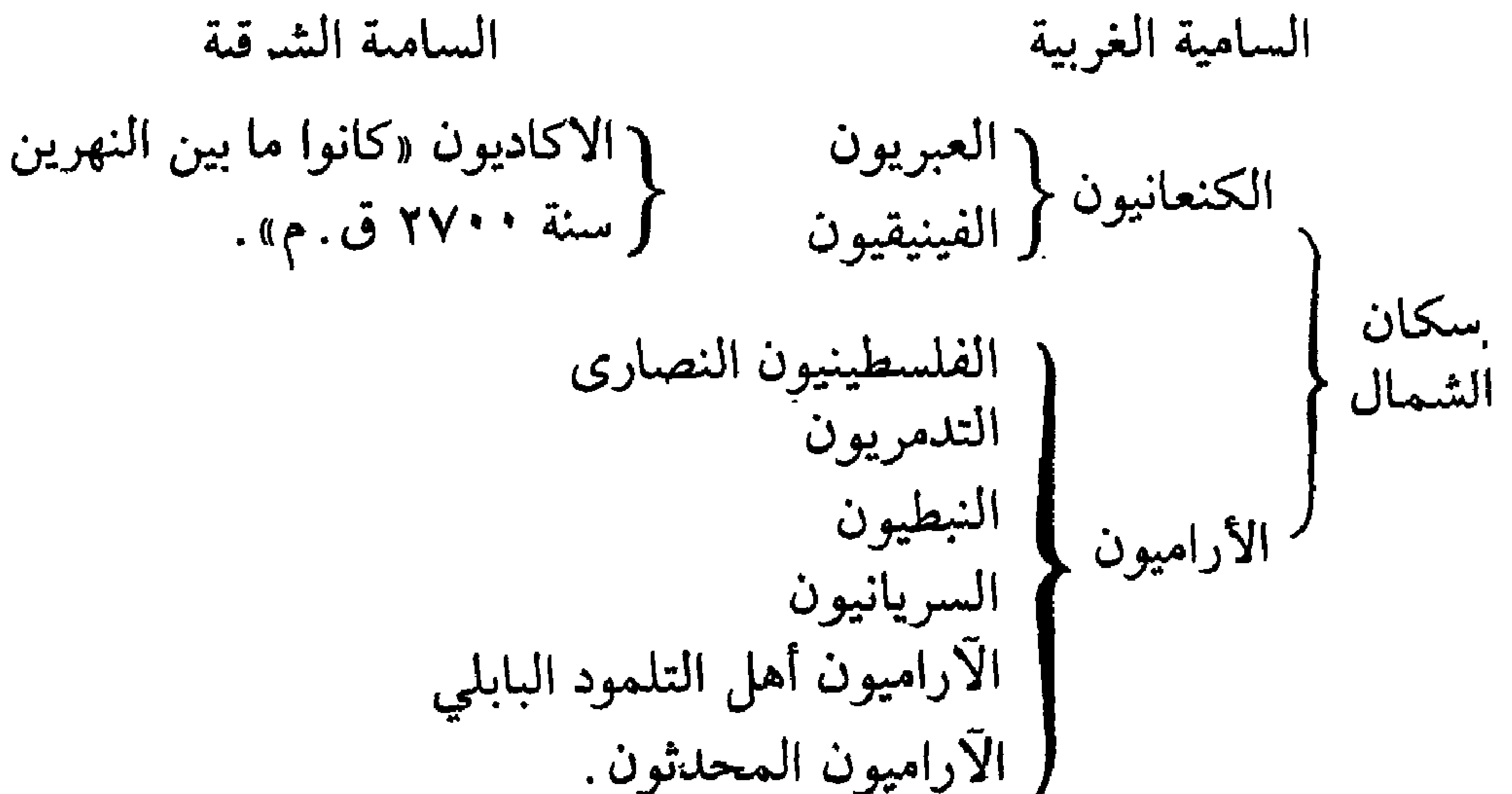
الشعوب السامية مستعيناً بالتوراة التي تسلسل من سام الشعوب السامية . فمن سام كان آشور وآرام وعِبِرْ . وعبر هذا هو الجد الأول لابراهيم ـ على ما تقول التوراة ـ أما كنعان ومصرايم (الذي منه المصريون) فجدهما الأعلى حام . وقد عدت الى الاصحاح العاشر من سفر التكوين فألفيت هذا النسب على الترتيب الآتي الذي يجيء مختصراً إذ كان هذا النسب وتفرعه يملأ صفحات من هذا السفر حتى يكاد يضيع فيها حبل النسب الذي تواصل من آدم (كما يقول أبو العلاء) .

تقول التوراة أولاد نوح : سام ، حام ، يافِث .

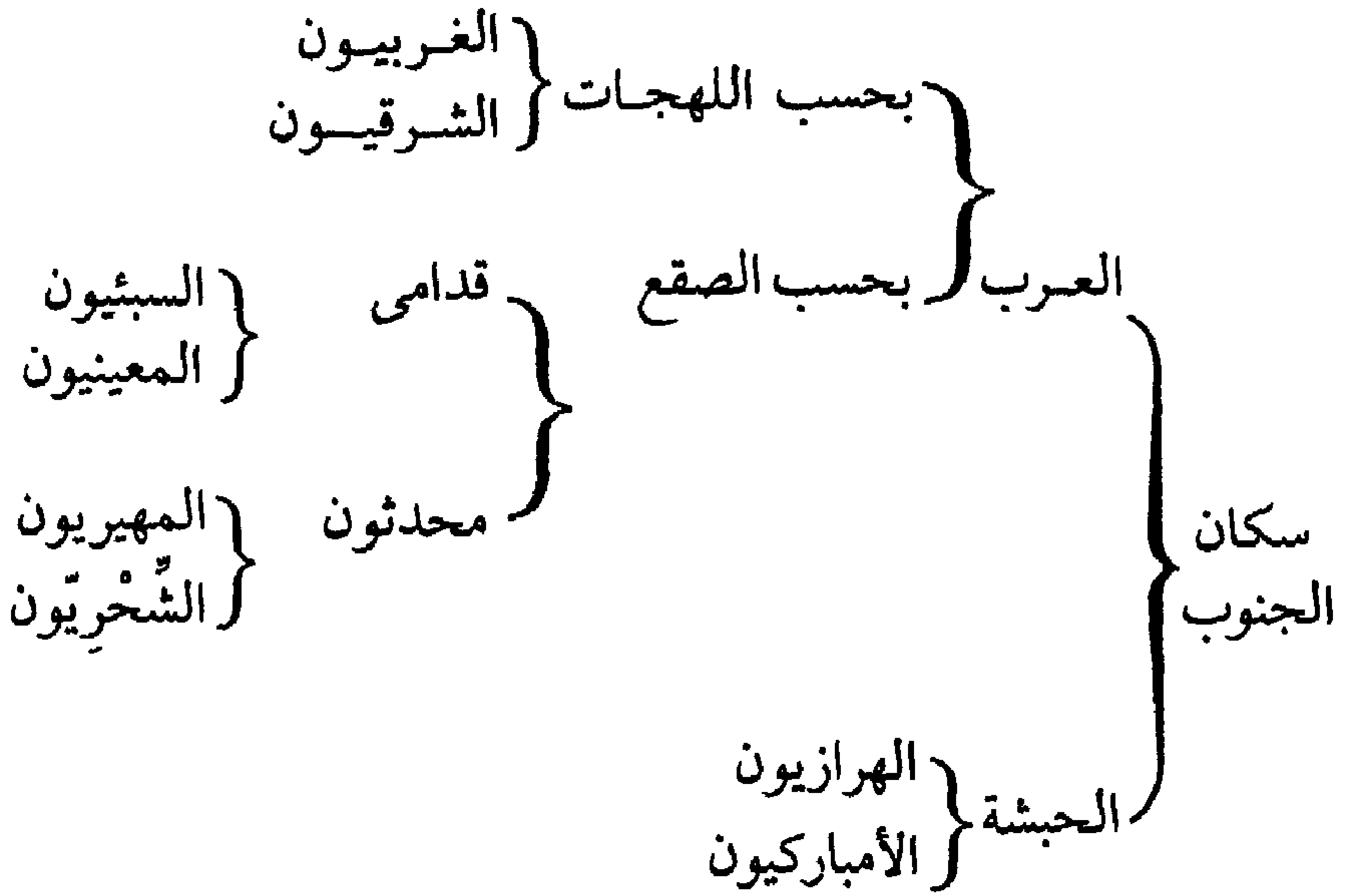


ويقسم الأستاذ فليش اللغات السامية عامة التقسيمين الآتيين :

(١)



(٢)



ومهد اللغات السامية مشكلة من اعقد المشاكل اللغوية التي بحث فيها العلماء الساميون . فهل كانت الأمم السامية كلها من اصل واحد ؟ فمن قائل ـ ان اصل السامية من الحبشة . ومنهم من قال ان الساميين نبعوا من الشمال الأفريقي ويحدد السنيور غويدي البقعة الأولى التي كانت مصدر الساميين هي جنوبي العراق ويتخذ سبيله الى البرهان كلمات مشتركة في اللغات السامية التي كانت في تلك المنازل العراقية وهو في ذلك يوضح مقالة التوراة في سفر التكوين التي تقول ان البشرية الأولى كانت على ارض بابل . وزاد علماء التاريخ على ذلك فقالوا في بابل كانت دولة حمورابي الذي يسمى عمراقل في التوراة وان حمورابي هو الذي وضع لقومه شريعة سميت باسمه قد ضمنها حصافة السومريين القدامى وهي اقدم شريعة في تاريخ التمدن الانساني.

وشغلت هذه القضية المستشرقين الذين لم يستطيعوا ان يؤدوا فيها

جواباً شافياً إلاَّ في العهد الأخير . حتى رجع عند بعضهم أن ارمينية كانت المنزل الأول للساميين . فهم يرون ان ارمينية كانت المهد الأول للآريين والساميين معاً . وان ارفكشاد بن سام جد العبرانيين وجد ابراهيم قد اتخذ هذه البقاع له منزلاً بعد الطوفان . وقد أطرح البعض الآخر هذا الرأي حتى كان في جملة هذه الآراء أن بلاد العرب كانت هي المهد الأول للغات السامية ، وكان صاحب هذا المذهب العالم السامي شارادير Scharader ويقيم البرهان على ذلك بأن اللغة العربية هي التي كانت أكثر حفاظاً على العناصر السامية الأولى . وقد دحض « غونتينو Gontenau » سنة ١٩٢٧ هذا الرأي في كتابه المسمى :

Manuel d'archéologie. Orientale

إذ كان يرى المهد الأصلي للغات السامية شيئاً وحفاظ اللغة العربية على العناصر الأصلية شيئاً آخر.

أما خواص اللغات السامية فأظهرها ميزة (الثلاثية الحرفية) . فإذا قيل : لغات الحروف الثلاثة كان المقصود اللغات السامية لأن الجذر اللغوي في هذه اللغات عامة لا يقل عن ثلاثة حروف (ولست بذاكر في هذا البحث قضية الجذر الحرفي الثنائي التي حاولت بسطها في درس من دروسي السابقة فإن ابا بكر بن عزيز السجستاني صاحب غريب القرآن وأحمد بن فارس صاحب معجم المقاييس اللغوية يقولان ومعهم من يشايعهم ان الفعل المضعف قائم على حرفين باهمال الثالث الذي هو حركة التضعيف) .

ثم تكون نوبة الكسع والتصدير والزيادات الحرفية فتولد الصيغ في اشكالها الصرفية الكثيرة وتظهر في العربية ـ خاصة ـ نوبة هذه الحروف المجردة الثلاثية حين يستطاع تعريب كلمة غربية أو اصطلاح لم يكن مدرجاً في العربية ، فإنما يعمد في سبيل تعريبه الى الحروف الثلاثية الأصيلة فيه مثال ذلك كلمة (الكنه) وهي كلمة مولدة كما يقول

الخفاجي في شفـاء الغـليـل . ومعنى الكنه حقيقة الشيء وجوهره . فلما دخلت لغة العرب وضعها المتكلمون في سياق الفعل وصيغه فقالـوا اكتنه الشيء اكتنـاها . وقـال الجوهـري بفعلها فهـو عنده كَنَهَـهُ يَكْنُهُـهُ وكلمـة (كَفْر) وهي القرية سريانية الأصل كما يقول الخفاجي عـربها العـرب ثم جمعوها على كفور[1] ويميز اللغات السامية ـ الى قضية الجـذر الثلاثي ـ أنَّ الحروف الساكنـة والمتحركـة فيها متـلاحمة تـلاحماً اعـان على خلق صيغ فيها لا تحصى . ومن خصائصها ان الحرف الصوتي المتحـرك يفيد وحـده مجرى صـوتياً واحـداً دون الاستعـانـة معـه بحـرف متحـرك آخـر يلاصقه . فكلمة (ماء) في العربية افاد فيها حرف العلة وحده الـذي هو حـرف الألف . فكانت الفتحـة فيه طـويلة وقد يـطيلها المتكلم مـا وسعه الامتداد دون ان يحتاج الى عَوْن آخر من احـرف العلة . اما كلمـة (eau) في الفـرنسية فـلا يفيد فيهـا الصـوت اللغـوي المـراد أداؤه إلاَّ بمسـانـدة حروف العلة الثلاثة التي هي : e a u.

ومن المزايا التي تختص بها اللغات السامية[2] أن : « ليس فيها أثر لادغام كلمة في اخـرى حتى تصير الاثنتـان كلمة واحـدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هي الحال في غير اللغات السامية وهذا هو سبب ظهور الإعراب في اللغة العربيـة . على أن الإعراب ليس في جملته من خصائص العربية وحدها فـان لبعض اللغات السـامية شيئـاً من الإعـراب بالحـركات التي تشيـر الى المفعول بـه في العـربيـة أو الى

---

(١) وفي لغة عصرنا تدخـل كلمات يعمـل في تعريبهـا أهل الصنـاعات . وقـد يحين وقت يتبنى فيه اللغويون هذه الألفاظ ان كان في حـاجة المجتمـع العربي مـا يعين على هذا التبني . فأهل العصـر عربو كلمة métre فقالوا (متر) وهي الحروف الثلاثـة الأصلية فيهـا M T R ثم جمعوهـا على أمتار . ومنهم من ينقـل كلمة marque فيقـول مـاركـة والأصل ثلاثة حروف M R Q وقد يعرب فعل marquer فيقول (مـرَّك) حين يعبر عن سير السيارة . والملحوظتان الأخيرتان جاء بهما الأستاذ فليش في كتابه ص ٢١ .

(٢) تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون ص ١٥ .

ضمير التبعية في السريانية » .

وقد أرى في قول ولفنسون هذا الذي قال به بعض متقدميه من علماء السامية انحرافاً عما الف العرب من ادغام كلمة بكلمة فهم ادغموا عبد الدار فقالوا عبدري وعبد شمس فقالوا عبشمي وادغموا بني العنبر فقالوا بلعنبر وما أحسب وجود الأعراب منوطاً بهذا على وجه من الصحة مطلقاً فان علماء النحو تداولوا كيفيات الجمع لعبد شمس وعبد الدار ولم يوضح ولفنسون رأيه لأني احسب انه أخذه اعتباطاً من سالفيه دون دليل ودون تعليل.

وقد يعمق العلماء الساميون بحوثهم ليبلغوا أصل الكلام السامي بعد أن يفرغوا من البحث من اصل الساميين انفسهم فيقولون ان اول فعل استخدمه الساميون هو (الأمر) ثم كانت منه الصيغ الباقية ويقول علماء نحونا ان أول فعل يستخدمه العرب (الماضي) ثم يكون منه المضارع فالأمر.

٣ ـ اللغة العبرية والسريانية وعلاقتهما بالعربية :

العبرية لغة الاسرائيليين ومن التوراة أتاهم هذا الاسم فجدهم عابر Eber كما يذكر الاصحاح العاشر. وكان أصلهم الذي أدركه التاريخ : « في طورسينا شمالي الحجاز ثم استولوا على فلسطين في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد »[١] وقد حاول بعض المستشرقين ان يجدوا علاقة بين اسم عابر الذي هو جد العبرانيين وفعل عبر بالعبرية ومعناه القطع والاجتياز فقال منهم قائل انه سمي بذلك لأنه عبر نهر الأردن أو نهراً آخر . ولهم في ذلك آراء شتيتة وكلها في حدود التظني لم ينهض معها دليل علمي قاطع والذي أنا بسبيله هو العلاقة بين العبرية والعربية . فسفر أيوب وهو من أسفار التوراة كما يذكر سليمان البستاني في مقدمته

(١) المصدر السابق ص ٧٧ .

على ترجمة الألياذة سنة ١٩٠٤ ـ كثير الايماء إلى أن أصله عربي وهو ملحمة من الملاحم القديمة ففيه حياة النبي أيوب في حالتي الخير والشر . فقد كان الشيطان يغريه ويريده على ضلال السبيل حتى استطاع أن يدحر الشيطان وان تصفو نفسه الى ربه[1]

ثم ان البستاني لم يقم حجة ثابتة على هذا الزعم ولم يمكنه التاريخ من ذلك . وقد حاول ولفنسون ايضاً بعد البستاني بقرابة عشرين عاماً ان يعالج الموضوع نفسه فقال[2]: « والذي يهمنا من هذا الكتاب انه أقرب سفر عبري الى العبرية من حيث الألفاظ التي تشبه العربية فيه فهو ذو مسحة صحراوية فاسم ايوب وأصدقائه من الأسماء التي كانت مألوفة في جاهلية العرب الأقدمين » .

وفي سفر أيوب أسماء وأبطال في هذه الملحمة الأخلاقية هي اليغاز التيمائي من تيماء وبلدا الشوحي وصوفر النعماني . والتعليل العلمي لهذه المشابهة اللفظية أن عوامل الاختلاط بين العبرانيين القدامى والعرب هو مما سبب هذا التمازج اللفظي وهذه قضية تقرها نواميس علم الاجتماع ، ويعلل سببها بالتجارة وما شاكل ذلك من المناسبة الاجتماعية . ويذكر ولفنسون كتاباً آخر واسمه (كتاب الجامعة) واسفاراً تسمى في اليهودية (سفاريم حيوصيم) أي ما يلحق بالعهد القديم وفي أخيلتها والفاظها علامات بين العربية والعبرية .

أما الأثر الأدبي بين اللغتين فان اليهود قد قبسوا انوار الأدب العربي في القرون الوسطى وكان لهم علماء وفلاسفة في اقطار العرب وخاصة في الأندلس كموسى بن ميمون كانوا وسيلة هذا القبس .

وأما اللغة السريانية فهي فرع من اللغة الآرامية وكان منبت أهلها في الثغور الشمالية التي سميت في عصر سيف الدولة (بالثغور

---

(١) استفضت في هذا البحث بمقدمة رسالتي للدكتوراه (شعر الحرب عند العرب) ووازنت بين شعر هوميروس وموضوع الحماسة عند العرب.

(٢) كتابه السابق ص ٩١.

الرومانية) وكانت (الـرها بـالقرب من حـران) هي المهد الأصلي لهـذه اللغة .

ويعين علماء السامية مولد السريانيين بالقرن الأول قبل الميلاد .

وقد انتشرت اللغة السريانية في بيئات عربيـة منذ الفتـح الاسلامي في سورية والعراق وقد كان (تيوفيل الرهـاوي) احد علمـاء السريـان[1] في عهد الخليفة المهدي مقرباً اليه فنقل الياذة هوميروس الى السريانية . ولست أرتاب في أن من السريان قد كـان في العراق بختشـوع وحنين بن اسحاق واسحاق بن حنين وكانوا في مزدهر العهد العباسي . وكان لهؤلاء وأضرابهم أثر في العربية كما كان للعـربية اثـر فيهم (وقد كنت حـدثتكم في عـامنا السـابق عند كـلامي على مخطوطـات معلولة (ملولـة) ما فيـه توضيح لهذا الرأي) .

وقد اثرت اليونانية في لغة السريان كما اثرت العبـرية . فقـد نقلت التـوراة اليها . ويـذهـب علماء الى ان في العـربيـة والسـريـانية كلمـات متشابهة في اللفظ والمعنى وان تأثير الخط السرياني كان واضحاً في خط الجزم الذي سمي بالخط الكوفي بعد تمصير الكوفة . ولم يستطع علماء السامية ان يعينوا حدود التـأثير بين السـريانيـة والعربيـة كما لم يستـطيعوا ذلـك في دراسة العبـرية (وحين يكـون في كليتنـا النـاشئـة فـرع للغـات السامية سيكون البحث في هذا الموضوع أجدى) .

وقد وجدت ان المستشرق السنيور انياس غويـدي ذو مذهب علمي خـالد فيمـا يتعلق باللغـات الساميـة فقد كـان استاذاً لـلأدب العـربي في الجامعة المصرية ـ كما ذكرت من قبل ـ حين تأسيسها سنة ١٩٠٨ فأفاض القول في حق اللغات السامية وكان قد تولى كرسي هذا الدرس ومـوضوع اللغات السامية في جامعة روما منـذ سنة ١٨٧٦ . فهـو من السابقين الى

(١) راجع مقدمة البستاني للألياذة ومقدمتي (لشعر الحرب عند العرب) .

كثير من الآراء الأدبية المعاصرة التي تتعلق بالشعر الجاهلي والأدب العربي القديم .

وأحب اليوم أن أشير الى ما سبق اليه السنيور غويدي من ذكر العلاقة التي بين العرب واليهود فبل الاسلام فهو ، من بين المعاصرين ، أول من بحث هذه العلاقة حين ذكر الشاعر الجاهلي السموأل بن عادياء وكان يهودياً . وهذا عرفه العرب الأقدمون وَمَنْ بَعْدَهم ، لكن غويدي لم يفض في البحث حول هذه العلاقة الأدبية في الشعر الجاهلي وكنت اطلب أن يذكر المنازع اليهودية في التحليل النفسي والاجتماعي والسياسي في جزيرة العرب قبل الاسلام . وقد ظهرت هذه النوازع جلية ابان البعثة النبوية فلقي رسولنا (ص) منها ما لقي من خيبر وبني قينقاع وكعب بن الأشرف ولقي المسلمون المرائر من عبد الله بن سبأ ونافع بن أبي العُقَيْق . فما يهودية السموأل في الشعر العربي ؟ وهل كانت حقاً تلك الحادثة التي تروى عنه في الحفاظ على دروع امرىء القيس وابنته حين انطلق مستجيراً بقيصر على قتلة ابيه وعلى العجم الذين ناصروهم . وهل حقاً ان اعداء امرىء القيس حاصروه بقصره الحصين وقتلوا ابنه على مشهد منه وهو دون حصنه مقيم على المروءة والوفاء فقال بعد مقتل ابنه :

وفيت بأدرع الكندي اني   إذا ما خان أقوام وفيت

افلا يكون في زعم التحقيق الأدبي ـ إن ساعفت النصوص : «أن يُذهب إلى أن هذا الشعر موضوع في الاسلام لتعزيز اليهود ، كل ذلك لم يحاول ذكره غويدي وكان بحوزته الجواب لو حاول . وذكر غويدي شُرَيْح بن عِمْران الشاعر اليهودي وذكر ابن السموأل شُعْبَة بن حُرَيْص وهو في أعقاب ذكره لهؤلاء الشعراء اليهود يقول[1] :

---

(١) (مجلة الجامعة المصرية) سنة ١٩٠٨ .

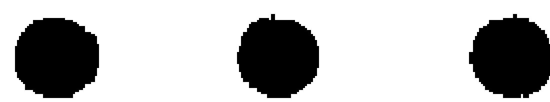
« ان العبرانيين بعد تفرقهم اتخذوا لغة البلد الذي استوطنوه » .

لكنه درس العلاقة اللغوية بين العبرانية والعربية بشكل علمي واضح فابان الموافقة والمشابهة في نطق بعض الحروف . فكلمة سلام هي شلوم في العبرية . وكل ما كان بالثاء في العربية فهو بالشين في العبرانية فالثور شور . وبين اشكالاً من الألفاظ « فالفاعل فوعل . والكاهن كوهن . وتوصل الى هذا الحكم . وهو «أن اللغة العبرانية تشابه اللغة العربية كثيراً » وهو حكم عام وفي الدراسة المأمولة بهذا العصر ان تؤلف المطولات في تبيان هذه العلاقة المنهجية التي تخدم العلم وتفيد في معرفة اصل اللغة العربية وتطورها التاريخي قبل الاسلام.

وحين درس السنيور غويدي اللغة السريانية اثبت ان السريان هم أخص أهل اللغات السامية بقضية النحو والصرف، وانهم السابقون الى نقط الحروف من فوق ومن تحت ومن أوساطها . وذكر ان العرب اتبعوا السريان في ذلك فنقطوا كتابتهم في المصاحف القديمة لكن المستشرق غويدي لا يبين الصلة الوثيقة بين العرب والسريان التي اقتضت مثل هذا الاقتباس في التنقيط . ويذكر امتزاج السريان بالعرب منذ القرن الخامس أو السادس للهجرة فيقول : « وكانت العربية لسان السريان المأنوس إلاّ ما يخص أمور الدين كالصلوات وشبه ذلك » .

ويقول : « ان العبرانيين اخذوا حركات الاعراب عن السريان » .

فكل هذه اللغات الثلاث العبرية والسريانية والعربية عملت عوامل لا يحصى لها عديد كانت مرهونة بالزمن واللسان ، فكونت أرواح هذه اللغات . وشبيه من يشمر لتحديد الفروق والصلات والصفات بينها بمن يصنع ذلك لتحديد الفروق والصلات والصفات بين ثلاثة أجناس من البشر.



الفصل السابع

١ ـ لغة الشمال ولغة الجنوب :

إذا عمقنا سؤال التاريخ عما وراء الحوادث المعروفة من عهد الجاهلية ، وجدنا من أقدم الأخبار العربية ما يعود الى سنة٨٥٤ قبل الميلاد . ففي هذا الخبر القديم نسمع بذكر عربي يسمى (جندبو) ولعلَّ هذا الاسم قد تطور في خلال الزمن اللغوي حتى صار (جندب)[١] . فان (جندبو) هذا قد أعان الأراميين في منطقة (كركر) على عدوهم (سلما ناصر) فأمدهم بالف جمل .

ويذكر (تفلا تفالصر) ملكة عربية تسمى « زينب » كانت تؤدي الجزية لملك آشور المسمى (سارغون) وقد حارب هذه الملكة العربية « سينا شريب » أيضاً[٢] .

ومما يذكر في هذا السبيل القديم أن سبئياً يسمى عمارة كان يقدم الهدايا لسارغون باسم جنوبي بلاد العرب اعراباً عن أواصر المودة ،

---

(١) ورد ذكر جندب في شعر امرىء القيس بقوله في زوجته :

خليلي مرا بي على أم جندب ... لنقض لبانات الفؤاد المعذب

(٢) هذا ما ذكره بيدرسن في كتابه عن الفنون السامية في الفقرة الثالثة والعشرين فيما يعلق الأستاذ فليش في هامشه .

ونجد في أعمق من ذلك في كتابات بابلية منقوشة قبل المسيح بألفي عام قد ذكر فيها هذه العبارة (ما ينوم ملك عمان في بلاد العرب الشرقية) .

وقد عثر على هذه الكتابة منقوشة على قاعدة تمثال (نارام سن) . وكان نارام سن ملك الجهات الأربع وقد افتتح بلاد عمان واسر ملكها مانيوم . وقد جاء ذكر هذه الأخبار التاريخية المتناهية في قدمها في مذكرات الأستاذ « ف . شيل » التي كتبها في فارس[1] .

وكان اكثر الكتابات التي عثر عليها المنقبون مما وجد في البقعة الوسطى من جزيرة العرب[2] وفي حضرموت ويقول الأستاذ كوهن في كتابه في الصحيفة ١٢٢ ان لغة أهل حضرموت القدامى كانت على ضربين ـ اللغة السبئية واللغة المعينية .

وقد بدأت اللغة السبئية منذ عصر الملوك القسوس حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد وكان ملوك مأرب يتخذون لأنفسهم لقب (ملك سبأ) ثم حل الحميريون في نطاق مأرب ويذهب العالم المنقب دورم في كتابه المسمى Les Langues et Les ecritures Sémitiques ص ٤٢ هامش ٣ إلى أن الحميريين كانوا أنداد السبئيين . كما أن القس رخمان كان من ناشري هذه الكتابات العربية القديمة .

السبئيون والمعينيون نفوذهم الى الشمال ـ وكانوا أهل تجارة على مسيرة الطريق التي كانت تسلكها القوافل في منزلة (العلى) وفي هذه المنزلة استطاعت البعثة الأثرية التي كان يقودها بول جوسان Paul Gaussan أن نقر بأحافيرها على نصوص حجرية ، كما عثر المنقبون في الأرض المصرية على نص عربي من العهد المعيني السبئي كتب في زمن بطليموس وقد كانت الف باء هذه اللغة المعينية السبئية

---

(١) الجزء السادس الصفحة الثانية .

(٢) يقول فليش نقلاً عن فيلس ان المنقبين عثروا الى الآن على سبعة آلاف كتابة أثرية .

ذات شكل خاص وهي بذلك الخط الذي كان يستخدم في كتابة العرب الجنوبيين وهو مشتق من الخط الفنيقي[١].

٢ ـ عرب الشمال :

مثلما رمينا بالطرف ما وراء القديم المعروف من عهود جاهلية العرب عند كلامي على عرب الجنوب فإني أشتام بهذا الطرف العالم الأعتق مما وراء الجاهلية ، فأجد علماء الآثار القديمة قد ارتادوا تلك الدنيا الآفلة من دنى العرب البائدين ، ووقعوا على نصوص حجرية نقشت بكتابات أولئك العرب الذين عفى على ذكرهم الدهر ولم يبق منه إلّا رسيس أخبار جواثم ، على أحجار عواف . من هذه الكتابات التي عثر عليها المنقبون كتابات لحيانية وثمودية وصفائية . وقد عثر على الكتابة اللحيانية في نطاق (العلي) وحدد عمر هذه النصوص بمبدأ العصر الأول الميلادي ووجدت الكتابات الثمودية على طريق مدائن صالح في تيماء وفي حرة تبوك وفي منازل خيبر وفي مرابع جعفر، وأحد هذه الآثار يرجع عهده الى سنة ١٠٦ قبل العصر المسيحي . أما الآثار الثمودية فهي ممعنة في بعدها . انها تعود الى سنة ٧٢١ قبل المسيح الى أيام سارغون الأشوري .

أما الآثار الصفائية فقد وجدت في جنوب دمشق الى الشرق في جبل الصفا . وقد ألمّ الأب رخمان بهذه النصوص الصفائية وأكبّ على دراستها منذ توصلت بعثة الأستاذ دونان[٢] وزوجته إلى كشفها وجمعها .

---

(١) ان الصلة لتبين جلية بين الخط العربي في جنوب جزيرة العرب وبين الخط البابلي فاحرف كثيرة في الكتابين كانت متشابهة ومتناصية ـ (راجع في المعلمة الفرنسية مادة ألف باء) المجلد الأول القسم الثاني الفصل الرابع بهذا الرمز (A — B) وقد كتب هذه المادة ج . فيفريه G . Fevrieh وتبسط في الكلام على علاقة بعض الخطوط القديمة ببعض .

(٢) كتاب الأستاذ فليش عن اللغات السامية ص ٩٥ .

وقد أشار القرآن الكريم في سورة الحجر[1] إلى المقابر الحجرية التي في مدائن صالح بقوله:

﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ . وقد شرح البيضاوي بأن أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً ، وقال ان الحجر واد بين المدينة والشام.

وهذه النصوص هي العون العلمي الحديث الذي يساعد على دراسة اللهجات العربية في جزيرة العرب والتوصل الى وجوه الشبه والمغايرة بين لغة أهل الشمال ولغة أهل الجنوب.

٣ ـ قضية اللغة في الشمال والجنوب :

إن القطع بوجود لغة شمالية ولغة جنوبية في بلاد العرب أمر ليس سهلاً لأن النصوص العلمية ووثائق الدراسة التي تعين على ذلك لم تحصل في أيدي أحد إلى اليوم إلّا حصولاً زهيداً لكن العثور على نصوص حميرية وسبئية ومعينية وإن يك لا يروى غلة الباحث فانه يعين الافتراض بوجود لغة عربية قبل الجاهلية المحدودة . وهذه اللغة العربية كانت تختلف في الجنوب عن لغة أهل الشمال . وقد كانت رقعة اللغة الشمالية على وجه من الحسبان شمالي البلاد العربية والحجاز . وكانت موائل اللغة الجنوبية في أرض القحطانيين وهم سكان الجنوب من اليمن الى حضرموت حتى بلاد الأزد في الشحر وعمان وما الى هاتيك الجهات في الزمن القديم من خزاعة وقضاعة والكنديين.

والحقيقة اننا قد نكون متسامحين في تعابيرنا حين نقسم بلاد

---

(١) السورة الخامسة عشرة الآية (٨٣) تفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي المتوفي ٧٩١ الطبعة البهية بالقاهرة ١٣٤٤ ص ٢٦١ ومدائن صالح عند البيضاوي منها المدينتان (سدوم والايكة) وفي السورة نفسها هذه الآية **﴿ وان كان اصحاب الايكة لظالمين ﴾** .

العرب القديمة الى جنوبية وشمالية إذ ليس وراء هذا القول تحديد طبيعي . فقد كان أهل الشمال وأهل الجنوب في أمريكا - إبان تشكلها السياسي الذي سبق وضعها الأخير في دنيا الحضارة الحديثة - محدودين بحدود الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ، وقد خاض الأميركيون الأول حرباً طحوناً في سبيل اتحادهم سنة ١٨٦١ وكانت الولايات الجنوبية كفرجينيا واركنصا ونورث كارولينا ذوات تحديد طبيعي وتقسيم سياسي ، فصح مع هذا كله ان يقال بتقسيم الولايات المتحدة القديمة الى شمالية وجنوبية وقد اتحدتا بعد الحرب مثل قطعة واحدة.

أما في بلاد العرب القديمة فالأمر لا ينطبق على هذا النظام ، فليس ثمة من تقسيم قبلي مقبول ، ولا كانت بلاد العرب خاضعة الى تجزئة سياسية . فمن باب التسامح في البحث أن نقول بوجود العرب الجنوبيين والشماليين من غير أن نبت في أمر الحدود بين الفريقين . وقد أتى حين من الدهر على العرب القدامى قبيل الجاهلية المعروفة فامتزج شماليهم بجنوبيهم بدواعي الهجرة والغزو ومطالب الكلأ والسعي لبقاء الحياة وهذا الدور الذي اختلفت فيه اللهجات وانتقل الكلام العربي فيه من دارة إلى دارة ومن صقع إلى صقع . وإذا ذكرنا حادث سيل العرم وخراب مدينة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم كان ذلك سبيلاً الى هجرة اليمنيين الجنوبيين بعد أن أخرب السيل ديارهم فارتحلوا مندفعين الى الشمال وتفرقوا كما يقول المثل المشهور أيدي سبأ . وقديماً كان المثل صوت الشعب واستعان به علماء الاجتماع على الحكم حين مارسوا تعليل الحياة الاجتماعية في أمة من الأمم باستقراء أمثالها.

والذي نحن صائرون اليه في هذا البحث أن اللهجات الشمالية امتزجت باللهجات الجنوبية وأخذت تكون لغة ذات لهجة جديدة هي لغة العرب في العهود القريبة من ظهور الاسلام وقد يجمل في الحكم ان نقر بالصراع اللغوي بين لغة الشمال ولغة الجنوب حتى ظفرت اللغة الشمالية

فابتلعت اللغة الجنوبية أو صهرتها في تعابيرها . ويميل بعض المستشرقين كما يذكر ولفنسون في كتابه ص ١٧١ الى الاستعانة بالكتابة العربية القديمة لتحقيق هذا الانقسام بين الشماليين والجنوبيين ، لكن دعواهم لم تكن واضحة ، لأنهم يجعلون الخط الأرامي هو أول خط احتك بالعرب فنقلوا كتابتهم عنه . والأراميون شماليون وكانوا قريبين من بلاد الحجاز ويقف هؤلاء المستشرقون عند هذا الحد دون أن يربطوا لنا علاقة الخط الأرامي الشمالي بالخط الجنوبي اليمني ، وقد وجدت ابن خلدون في مقدمته اصدق خبراً في شرح علاقة الخطوط العربية بعضها ببعض في مبادىء تكوينها فجعلت ذلك سبيلاً إلى الاستعانة بقوله لاثبات القضية اللغوية الشمالية والقضية الجنوبية فهو يقول: [١] :

« وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغ من الأحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة كما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان لها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش » .

ويقول عن لغة الحميريين في مقدمته[٢] :

« ولغة حمير لغة أخرى مغايرة بلغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر ، إلاَّ ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة حمل على الاستنباط والاستقراء » .

فابن خلدون يناظر بين لغة حمير القديمة ولغة مضر فيما بينهما من المغايرة بلغة مضر واللغة العامية السائدة في عصره وما بينهما من المغايرة .

---

(١) المقدمة طبعة دار الكشاف بيروت ١٩٤٨ ص ٤١٨ فصل الخط والكتابة عند العرب .

(٢) ص ٥٥٧ المصدر نفسه .

ومن ههنـا يصح عندي كما ذكرت فيما سبق ـ ما قاله أبو عمرو بن العلاء « ما لسان حمير وأقاصي الـيمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » .

وقد درس اللغة العربية القديمة في جنـوب بلاد العـرب المستشرق الايتالي ابنياس غـويدي والـظاهر أن محـاضراتـه الفائقـة سنة ١٩٠٨ في الجامعة المصرية بعثت نـوراً إلىٰ آفاق كثيـر من علماء عصـره بل احسبـه منهلاً للدراسات الشرقية والسـامية في اللغـة والأدب ورد موارده كثيـر من اعيان الأدب والدراسة السامية في عصرنا هذا.

فغوايدي يكاد يحدد مواقع اللغة الجنوبية تحديـداً عاماً فيقول[1] : « والقسم الجنـوبي من اللغة العـربية يشتمـل على لغة سبأ وحميـر . . . ولسان حمير وسبأ لسان بني قحطان ، وبلاد سبأ وحمير هي اليمن » وبعد أن يذكر غويدي الحوادث التاريخية المتعاورة على جنوب بلاد العرب من الحـرب بينهم وبين الأحابيش بحكم القـرب والجـوار الـذي بينـه البحـر يقول : « ثم دخلت اليمن تحت حكم الفرس واضمحلت لغتهم في اثناء ذلك واستفاضت بينهم العربية » وهو يريـد أن يدعي بـان لغة الحميـريين الأوائل لـم تكن العربيـة وحق له ذلـك فان من يـلاحظ الكتابـة الحميريـة والسبئية يرى عجباً بما لا يتفق والحروف العربية إلاّ بالقليل واليكم طرفـاً من حروف الحميريين:

ويقول غويدي عن هذه الحـروف أن العلماء السـاميين اختلفوا في نسبهـا فمن قائـل انها من الأحـرف الفينيقية ومن قـائل انهـا من الأحـرف الفينيقية بواسطة الأحرف اليونانية.

ثم يعـرض الأستاذ غـويدي نصـوصاً حجـرية من اللغـة الحميريـة الجنوبية منها هذا النصب:

---

(١) المحاضرة رقم ٣٦ ص ٣١ من المجموعة المذكورة فيما قبل.

اخت	أمهو	وشفنزم[1]	بلعتي	خمتن	بخلف	هجرن	مريب
اخت	امه	وشفزم	صاحبتي	الخيمة	وراء	هجر	مأرب
شمتي	وثنن	لالمقة[2]	بعل	أوم[3]	حجن	وفههمو	بمسالهو
وضعت	صنما	للمقة	صاحب	أوم	لأنه	اجابهم	عن سؤاله
لوفيهمو							
لسلمهم							

ويلاحق غويدي قضية اللغة العربية في جنوب بلاد العرب ملاحقة علمية فيتقصص الكتب العربية التي قد تكون الفت في هذا السبيل فيقع على اسم كتابين أولهما صفة جزيرة العرب والثاني كتاب الأكليل وهي للحسن بن احمد الهمداني وفي فصول من الأكليل تاريخ بني قحطان من أول أمرهم الى ظهور الاسلام وفي فصل حمير يذكر امثالهم ولغتهم وحروفهم الهجائية وهذا الكتاب من كنوز العربية المفقودة إلى اليوم ولولا قطعة منه نادرة وجدت في دار الكتب بلندن لما استطاع غويدي وصف هذا الكتاب.

وكان للحميريين أسماء للأيام تخالف الأسماء العربية لها وهي هذه:

الأحد ـ أول

الاثنين ـ أهون

الثلاثاء ـ جبار

الأربعاء ـ دبار

الخميس ـ مؤنس.

الجمعة ـ العروبة

السبت ـ شبار

(١) يلاحظ غويدي ان هذا الاسم قريب من اسم شنفري.

(٢) اسم صنم حميري. (٣) اسم بلد.

ويظهر لي أن بدء أيام الأسبوع عند الحميريين بالأحد أمر مخالف لبدئها عند الأمم المسيحية وعند المسلمين واليهود ولعلهم كانوا على صواب في التعداد حين يوافق الإسم المعدود فكلمة أول ينبغي أن تكون كما عرفوا لأول يوم وما بعده يكون اليوم الثاني . وأما التسمية عندنا فعدلت عن ذلك فالأحد ـ مع أنه احد ـ هو ثاني يوم من أيام اسابيعنا والظاهر ان اسم العروبة للجمعة ظل في العربية متداولاً حتى كان عصر أبي العلاء المعري فهو يقول عن المرأة التي احدث الدفاع عن عرضها ثورة في معرة النعمان حين أراد أن يعدو عليها صاحب الحانة فأتت المسلمين تشكو اليهم امرها وكان الوقت الصلاة واليوم جمعة فقال المعري :

أتت جامع يوم العروبة جامعاً تقص على الشهاد في المصر أمرها

وكان بوسع المعري أن يذكر يوم الجمعة بديلاً من يوم العروبة لأنه غير ملزوم بما لا يلزم لأن الكلمة لم تأت عروضاً ولا قافية .

ولتايس البحث أرى أن زورة لبلاد العرب الجنوبية والشمالية في عصرنا هذا قد تعين الباحث على تقريب اسباب المفاهيم اللغوية التي كانت في بلاد العرب العاربة والمستعربة بعد أن فاتنا كل شيء من حقائق اللغة في أيام العرب البائدين .

وقد ابهت ذلك جامعة فؤاد الأول بمصر فأوفدت الدكتور خليل نامي الى بلاد اليمن سنة ١٩٣٦ ليجمع نصوصاً من اللغة المعاصرة اليمنية وقد عثر على نقوش عربية قديمة وحين انقلب الى المانيا اخذ في حل رموزها مع بعض المستشرقين الألمان وفي سنة ١٩٣٩ قدم هذه الدراسات اللغوية القائمة على اللهجات العربية الجنوبية المعاصرة[١] .

(١) وقد نال عليها درجة الدكتوراه من جامعة فؤاد في فرع اللغات السامية وقد عرفت هذا العالم وزرته في منزله بالقاهرة في متيل الروضة مع الدكتور شوقي ضيف وكلاهما من أساتذة كلية الآداب في جامعة فؤاد. وقد نشرت عمل الدكتور نامي ادارة البعثات المصرية سنة ١٩٤٣ بعنوان (نشر نصوص سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها) .

وحين تفرست في نص من نصوصه وجدت لغة اليمن المعاصرة تختلف بعض الفاظها اختلافاً جسيماً عن لغة العرب الصحيحة ويظهر هذا الاختلاف في دراسة الجدول الآتي[1]:

باليمنية الحاضرة	بالعربية الفصحى	باليمنية الحاضرة	بالعربية الفصحى
و	= يا	يهرجو	= يحدثون
رجال	= رجل	يقلوعو	= يكذبون
حنتر	= انظر	اتوى	= غريب
خبيرك	= صديقك	اكه	= هكذا
قا	= قد	هكه	= هكذا
جربتو	= جربت	ايد	=يد (مثل اللهجة الشامية)
لحما	= الى حين ما	بدرى	= مبكرا (مثل اللهجة المصرية)
اولان	= هؤلاء	بس	= قط (مثل اللهجة المصرية والشامية)
اللى	= الذين	بكره	= غدا (مثل اللهجة المصرية والشامية)
		تنتين	= اثنتين (مثل اللهجة المصرين والشامية)

ولو أن الدكتور نامي زار شمالي الجزيرة كما زار جنوبيها وجمع لهجاتها المعاصرة ونصوصها اللغوية لأفدنا بالمقابلة والتنظير بين لغات أهل الجنوب ولغات أهل الشمال في عصرنا هذا ولنفذنا ولو بسبيل ضيق الى المقابلة بين هاتين اللغتين في قديمها الخالي.

ونشط المستشرق الألماني انوليتمان في هذا السبيل فدرس بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي وحاول أن يعرف كيف كان الصوت اللغوي لنطق العرب القدامى ببعض الحروف فبدأ بالجيم وراح يزعم ان

(١) راجع هذه النصوص في مجلة كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول المجلد الثامن العدد الأول مايو ١٩٤٦ ص ٦٩ المجلد العاشر الجزء الأول مايو ١٩٤٨ ص ٦٧ وما بعدها وقد ضبط هذا الاستاذ الكلمات بأحرف لاتينية حرصاً على طريقة تلفظها وضبط لفظها

العـرب الأقدمين انمـا كـانـوا ينـطقـون بـالجيم على نحـو مـا ينـطق بهـا المصريون المعاصرون أي (gim) واستـدل بنطق هـذا الحرف ـ وقـد زال الناطقون به قديماً ـ باللغات السامية القديمة التي كانت معاصرة للعربية الأولى فاستقرأ اسم :

الجمل في العبرانية وهو: gamal
وفي السريانية وهو: gamla
وفي الحبشية: gamal

يستدل ليتمان على انه كان كذلك في لغة العرب القديمة أي جمل (بالجيم المصرية) ويذهب ليتمـان الى أن هذا النـطق للجيم كان نـطق القرشيين في زمان النبي .

وكان استكشاف المستشرق الفرنسي رينيه دوسو Dosseau وماكلير Maclaire سنة ١٩٠١ لأقدم نص عربي فصيح[1] حدثاً رائعاً في تاريخ اللغة العربية ودراسة فقهها اللغوي وينابيع لسانها وقد نشر هذا النّص أول ما نشر في مجلة الآثار الجزء الثاني لسنة ١٩٠٢ من صفحات ٤٠٩ ـ ٤٢١ مع دراسة تحليلية .

وكان استكشاف هـذا النص في مكان يسمى النمـارة[2] وهو مؤرخ بالسنة ٢٢٣ لعصر بصرى أي مايقابل سنة ٣٢٨ المسيحية وهو منقوش على حجر رثائي أُقيم على قبر الملك أمرىء القيس بن عمرو ملك العرب كافة وكان على لخم وملوكها[3]

وهذه جملة من النص:

---

(١) اقصـد بكلمة عـربي فصيـح اللغـة الكـلاسيكيـة اي اللغـة التي كـانت سـائـدة قبيـل الجاهلية .
(٢) النمارة مكان في جبل الدروز.
(٣) من المصدر السابق للأستاذ فليش.

تي نفس مر القيس بر عمرو

هذا قبر امرئ القيس بن عمرو

وبقيته في ترجمة الى العربية المعروفة . . . ملك العرب كلهم الذي حاز التاج وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم وهزم مذحج بقوته وجاد الى نزجي في نجران مدينة شمر وملك معدا وانـزل بنيه ارض الشعوب ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه في الحول هلك سنة ٢٢٣ يوم سبعه من أيلول[١] ليسعد الذي ولده.

والى جانب نص النمارة نجد في الدراسات السامية المعاصرة نصاً ذكر انوليتمان[٢] وسماه نص (أم الجمال) وهي خرائب عربية في بادية الشام وجد فيها نصّ منقوش بحروف نبطية ـ وكان النبط عرباً كما يقول ليتمان ـ وانما كانوا يكتبون بلهجة أرامية هي النبطية ومنطوق هذا النص بالعربية:

(هذا شاهد قبر فهر بن سلى مربي جذيمة ملك تنوخ) وجذيمة هذا هو الأبرش معاصر زينب ملكة تدمر وقد أورد ليتمان هذا النص في سبيل دراسته للهجات العربية القديمة وكنت أرغب في أن اجده قد حقق في نطق كلمة جذيمة فهل كان نطقها بالجيم المعروفة أو بالجيم المصرية والذي يظهر من نشره لهذا النص انه انما اراد النطق بالجيم نطقاً مصرياً في اسم جذيمة وقد استدللت على هذا من ترجمة النص باليونانية فان اسم جذيمة ورد هكذا ΓΑΛΕΟΥ واللفظة بالفرنسية Gazima وهذا دليل كبير على ما ذهب إليه ليتمان من أن الجيم في لغة العرب البائدة هو كاف أي جيم مصرية (gim).

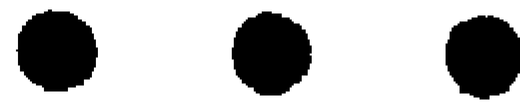
فهذه المحاولات الموفقة في دراسة النصوص اللغوية القديمة

---

(١) كانون الأول ـ ونشر هذا النص بالعربية ولفنسون في كتابه السابق ص ١٩٠.

(٢) انظر بحث المستشرق انوليتمان في صدر مجلة كلية الآداب المصرية المجلد العاشر الجزء الأول سنة ١٩٤٨

والحديثة في جزيرة العرب وتدوين اللهجات المعاصرة للاستدلال بها على اللهجات القديمة ، كل ذلك يخدم قضية فقه اللغة خدمة جلى ويعين على معرفة اللغة العربية في شمالي الجزيرة وجنوبيها ـ ولسوف يأتي زمن وقد يكون قريباً ـ تنشر فيه النصوص المعينة على مثل هذا الدرس فيصبح بعد ذلك ان يقرر علماء اللغات السامية عامة وعالم اللغة العربية خاصة قضية اللغتين العربيتين اللتين كانتا في الشمال والجنوب . ثم بعد تفهمهما والوقوف عليهما وقوفاً تاماً ، يستطيع هؤلاء العلماء ان يبحثوا في تأثير واحدة على اختها ومحو واحدة للثانية أو استيلاء لغة واحدة على سائر اللغات كالذي كان للغة قريش حين صار اليها مثل هذا الاستيلاء في أواخر الجاهلية وحين بدأ الإسلام .



الفصل الثامن

١ ـ دراسة مفردات اللغة وعباراتها في كلام الجاهلية :

حين لا يستطيع الباحث خلاصاً من الأمر الكائن فمن الرأي أن يأخذ بهذا الأمر وان يحاول تفهمه وتقريب أسباب الحقيقة منه حتى يتاح له الخلوص الى أمر ضاحي الحقيقة مجلو الصفحة لا مراء فيه.

وقد يدخل بعض الباحثين الشكوك على النفوس . فكم كان بين أيدينا من آثار العقل والشعور قضايا كنا نأخذ بها على أنها حقائق ثابتة ثم ادخل الباحثون الشكوك على أنفسنا في أمر هذه الحقائق فصرنا ننظر اليها كمن ينظر الى أمر (مشبوه) إن صح هذا الوصف في وقوع الشبهة .

على أن الشعر الجاهلي وكل آثار اللسان في الجاهلية صحيحة لاشبه فيها. وكان يحلو لنا التأمل في هذه الآثار واكتناه الحياة الجاهلية فيها رسم يلذ لنا ان نتحرى في مرايا الشعر لنرى الجاهلية تسعى الينا برملها وخيلها وجمالها ونسائها وأبطالها المناجيد متلفضين بالعباءات معتجرين بالعقالات يمرون وكأنهم السهام المنطلقة على صهوات أفراسهم السلاهب . لقد خطف هذه المرايا السحرية من ايدينا علماء لا تأخذهم في الحق لومة لائم ولا يعرفون إلا وجه الصواب . انهم يشقون اليه اليم وغبار الصحراء ، ومتى بلغوا اليه ابتسموا ناسين كل الأعباء التي تحملوها في سبيله . من هؤلاء العلماء من ادخل الشك على نفوسنا في

قضية الشعر الجاهلي وآثار الجاهلية ، من مستشرقين وأدباء معاصرين ومن قدامى من شيوخ في أدبنا لم يصرحوا في القول كل التصريح .

فأنا حين آخذ بنصّ جاهلي قصيدة أو خطبة أو سجع ، يكون شأني شأن من أخذ بورقة من نقدنا المعاصر . كان يغالي بها كل المغالاة فهتف به نقار نظار صراف وقال له :

ـ احذر انها نقد زائف .

وكيف تم الأمر فلا بدَّ لي لإمكان الدراسة الأدبية التي تتعلق بفقه اللغة العربية ، من أن آخذ بأطراف من الشعر والكلام الجاهلي لأرى الى مفرداتها وتركيب عباراتها ، ولأخرج احكاماً لغوية وأدبية من هذه الأطراف والنصوص تكون تتمة ما كنت بسبيله من دراسة لغوية في متقدم هذه المحاضرات .

وقد تخيرت هذه النصوص من الفترة الجاهلية الأخيرة ومن الأيام التي كانت قريبة من مولد الرسول أو جاءت حول ذلك ومعلوم في تقسيم المؤرخين والأدباء ان انقضاء الجاهلية كان منذ بعثة محمد (ص) ففي الأخذ بهذا التحديد الزمني النسبي ابدأ بقطعة من لامية لبشامة بن الغدير[1] وبشامة هذا قد اذكرني فيما صنع مع ابن اخته زهير بما صنع جوبتير ـ كما تقول أساطير اليونان ـ فان جوبتير قسم المغانم في الخليقة فأعطى المال للناس حسب احتياجهم ولما نفذ ما عنده ادركه الشاعر فقال :أنا لم أنل من لدنك شيئاً فأعطاه القيثارة وقال : هذه تكفيك .

وقد وصف هذا الشاعر الناقة وصفاً جاهلياً يذكرنا بوصف القيس للفرس ، وهذا التقصي في سكب الأوصاف وتتابعها وانفاذ الجهد في دقتها من شأن الشعر الجاهلي الذي يحب الشاعر أن يحصر في نطاق

(١) شاعر جاهلي قليل الشعر ينتهي نسبه الى غطفان وكان خال زهير بن ابي سلمى وهو الذي قسم ماله في اقربائه ولم يكن له ولد ففاتت القسمة زهيراً فلما جاءه قال له اورثتك الشعر.

واحد كل قدرته على القول والخيال.

يقول ابن الغدير في وصف ناقته[1]:

فقربت للرحل عيرانة	عذافرة عنتريساً ذمولا
مداخلة الخلق مضبورة	إذا اخذ الحاقفات المقيلا
توقر شازرة طرفها	إذا ما ثنيت اليها الجديلا
بعين كعين مغيض القداح	إذا ما اراغ يريد الحويلا

ففي هذه الأبيات وبقيتها في القصيدة على هذا الضرب من استدراك الصور أتبين ان ابن الغدير كان لا يكتفي بلفظ واصف واحد وانما كان ينسج الألفاظ نسجا على تصويره مطيته فعيرانته وهي ناقة يشبهها بالعير لصلابتها وتحملها وصبرها عذافرة ، عنتريس ، ذمول . وكل هذه الأسماء الوصفية متقاربة المعاني بين الشدة والجرأة والسرعة فيذكرنا بامرىء القيس حين وصف فرسه مكرمفر مقبل مدبر.

وابن الغدير في البيت الثاني متمم للوصف السابق ينسج الألفاظ التي تزيد في تجسيم الصورة وتمثيلها، ومن خصائص الشعر الجاهلي هذا التكرار بغية رسوخ الصور في الأذهان . والبيتان الأخيران في وصف وقار الناقة وهدوئها يذكراننا بوصف عنترة لفرسه حين ثنى نحوه جيده بعبرة وتحمحم وافاضة القداح عادة جاهلية تمكن للناقد صحة الحكم على جاهلية هذه الأبيات.

وفي النظرة الملقاة على الفاظ هذه الأبيات ترينا ان مفرداتها اللغوية من الكلام المعروف في الاسلام ومما لم يختص به هذا الشعر الجاهلي وحده على أني أرى في زيارة الغريب ـ وهذه القصيدة محشوة به ـ ما يعين على الحكم بأنها مشابهة لشعر الرجاز في استعمال الغريب.

---

(١) المفضليات للضبي طبعة المعارف بمصر سنة ١٣٦١ وقوف شاكر وهارون ج ١ ص ٥٤.

وهذه الدراسة اللغوية لأمثال هـذه المفردات التي وصلت الينـا من شعر الجاهلية المعروف تبـدو لنا وكـأنها دراسـة لأي شعر مثـل في صدر الاسلام لأنّ الخيال لم يتبدل واستعمال العبارات واحد . فإذا نظرنـا في أبيـات من قصيدة جـاهلية متـأخرة لشـاعر كـان يسمى (ربيعة بن مقـروم الضبي) أدرك الاسلام يصف فيها هواه أيام شبابه ثم يتأسى لما حصل من البعد بينه وبين احبابه فهو يذكر المنازل التي حل بها أهله الظاعنون وهـو يصـور شيبه وأخـذ السنين منه فـانما يعتـز كل العـزة بتاريـخ بـطولتـه في الحرب وكرمه في السلم وحمايته للعرض والذمار وكل هذا من خصائص القول في الشعر الجـاهلي ولا عليه من بـأس خلال هـذه القصيدة من أن يذكر الندامى وشرابه معهم . ولم يعجبني أن أرى هذا الشاعر قـد خلص من كـل ذلك الى ذكـر الأيام الجـاهلية التي حضـرها وهي كـافية لتجلله بالمجد والـفخـر وكـان الشاعر حضر من هذه الأيام يوم جراد وهو ماء في ديار بني تميم .

إنه يقول :

تذكرت ـ والذكرى تهيجك ـ زينبا   وأصبـح بـاقي وصلهـا قـد تعضبـا
وحـل بفلج فـالأبـاتـر اهـلنـا   وشـطت فحلت غمـرة فمثقبـا
فـأمـا تـريني قـد تـركت لجـاجتي   وأصبحت مبيض العـذارين اشيبـا
فيـا رب خصم قـد كفيت دفـاعـه   وقـومـت مـنـه درأة فـتـنـكـبـا
واضيـاف ليـل في شمـال عـريـة   قريت من الكوم السديف المرعبـا
وأسـمـر خـطي كـأنّ سنـانـه   شهـاب غضى شيعتـه فتلهبـا
وفتيـان صدق قـد صبحت سلافـة   إذا الديك في جوس من الليل طربا

إلى أن يقول :

ونحن سقينـا من فـزيـر وبحتـر   بكـل يـد منـا سنـانـا وثعلبـا
وفـارست مردود اشـاطت رمـاحنـا   واجـزرن مسعـودا ضبـاعـاً واذؤبـا

فإذا عرضنا هذا النص من شعر الجاهلية على دراسة في فقـه اللغة

لزمنا النظر الى مفرداته اللفظية فلا علينا ان نرى فيها كل لفظ كان متداولاً في الجاهلية المعروفة عندنا والتي وصل الينا منها نصوص من أمثال هذا الشعر فكلمات الذكرى ، وحل بالمكان ، وشط، وغمرة ومثقب وهي اسمي مكان والأضياف والليل وريح الشمال ، والقيرى، والناقة الكوماء وسديفها ، والأسمر الخطي والسنان ، والشهاب ، والفتيان ، والسلافة والليل ، والتطريب.

كل هذا من الكلام المتداول في شعر الجاهلية لأنه اداة التعبير التي كانت وسيلة لاخراج الصور الشعرية من الخواطر الى اللغة . فكل كلمة من هذه الكلمات تهيج صوراً أو خواطر جاهلية لا تحصى ولا يكاد يخلو شاعر جاهلي عن استعمالها في شعره واستخدام مدلولاتها.

وإذا تدارسنا المعاني الجاهلية في هذا النص فاننا نجدها مما اقام الجاهليون عليه بناء شعرهم الكثير.

١ ـ التذكر للأحبة وما يثير ذلك من الشجون.

٢ ـ حلولهم في الأماكن المتتابعة بحرف الفاء .

٣ ـ الفخر المتسبب عن تلاقي النقص. والنقص ههنا الشيب الذي أزال الشباب وهذا يدلنا على ان قضية التشكي من الشيب مرأى الشيب نقيصة أمر عتيق في تاريخ الشعر العربي كان منذ الجاهلية وظل حتى يومنا هذا في الشعر العربي .

٤ ـ الفخر بالشجاعة والجلاد وقهر الخصوم ـ في حالة الحرب ـ .

٥ ـ الفخر بالكرم وقرى الأضياف ـ في حالة السلم ـ .

٦ ـ الفخر بإدارة الشراب على الخلاّن.

وأكثر الشعر الجاهلي في هذه الأغراض معني بهذه المعاني كل العناية وهي عندي الطابع الأصيل لشعر الجاهلية وقد تختلف هذه الطوابع اختلافاً قليلاً.

وحين نسهل النقد فنعتبر نصوصاً من النثر على أنها جاهلية فاني انتقي لهذه الدراسة اللغوية قطعة من النثر الجاهلي قالها (الملبب بن عوف بن سلمة الجعفي) وحديث هذه القطعة في رواية أبي بكر الأنباري والقالي[1] أنه كان لسلامة ذي فائش ابن وكان به مسروراً يرشحه لموضعه فركب ذات يوم فرساً صعباً فكبا به فوقصه فجزع سلامة عليه جزعاً شديداً فقام الملبب بين يديه فقال :

« أيها الملك : إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطي لتأخذ وتجمع لتشتت وتحلي لتمر وتزرع الأحزان في القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب وكل مصيبة تخطأتك جلل ، ما لم تدن الأجل وتقطع الأمل ، وان حادثاً ألمَّ بك فاستبد بأقلك ، وصفح عن اكثرك لمن أجل النعم عليك وقد تناهت اليك أنباء من رزىء فصبر. وأصيب فاغتفر إذ كان شعري فيما يرتقب ويحذر فاستشعر اليأس مما فات إذ كان ارتجاعه ممتنعاً ، ومرامه مستصعباً ، فلشيء ما ضربت الأسى ، وفزع أولو الألباب الى حسن العزاء» .

ونظرة صائبة الى طبيعة هذا الانشاء ترينا اشباهاً له ونظائر لا يحصى عدها من كلام الأمويين والعباسيين في العزاء وتخفيف المصاب . على أني لست انكر ان العرب في عهد سلامة ذي فائش[2] كان هذا كلامهم وذو فاتش كان من المقاويل في الجاهلية وقد قصده الأعشى يوماً ووقف ببابه حتى وصل اليه ومدحه ونال جائزته فيصلح ان يكون عهده مجالاً لدراسة نص من نصوص النثر فيه .

وهل كنت مفسحاً لمجال المنافسة في هذه الألفاظ والمفردات التي استعملها الملبب في طريق المزاوجة فتزاوج بين الألفاظ وبين المعاني والجمل.

---

(١) الأمالي الطبعة البولاقية ج ٢ ص ١٠١ .

(٢) وكان لسلامة بن يزيد اليحصبي هذا ولد يحميه وكان يظهر لقومه مرة في العام وهو في برقع (راجع شعر القرامطة في رسالتي للدكتوراه وحديثي عن المبرقعين) .

٢ـ قيمة الدراسة في هذه النصوص من الأدب الجاهلي لبيان علاقتها بلغة قريش :

لتبيين علاقة اللغة بقريش نـرد وجهة بحثنـا الى مـا كنّـا عنـده من الكلام على لغة الشمال ولغة الجنوب وما صـرنا اليـه من أن لغة الشمـال استـطاعت أن تلتقم لغة الجنـوب وان تسود وحـدها على اكثـر اللهجات العربية التي كانت معروفة قبيل الاسلام وفي أخريات الجاهليـة ، وعلماء الأدب يطيلون الوقوف عند هذه العوامل التي عملت في ترويق لغة قريش ومهدتها لينزل بها القـرآن الكريم ويعـدون في هذه العـوامل قضيـة الحج وسوق عكاظ والطرق التجارية وكل هذه من الأسباب التي يقر بها علمـاء الاجتماع في التأثير اللغوي كما سلف تذاكرنا فيه في مناسبات كثيرة .

فـإذا عي العلم اللغوي المعـاصر في ان يقـدم لنا بحثـاً عن حقائق الأسبـاب التي روقت لغة قـريش وجعلها السـائدة وضـاعت علينـا بـرهـة الاتصال بينها وبين سائر اللغات العربيـة واللهجات فـلا أقل من ان ننـظر في نص قرشي بحت لنتلمس أوجه اللغة فيه .

يقع لنا نص من الشعر قيل بعد مولـد الرسـول (ص) وحديث هـذا النص في العقد الفريد[١] انه لما ظفر سيف بن ذي يزن ـ وهـو من ملوك الجنـوب ـ بالحبشـة بعد مـولد النبي (ص) اتتـه وفـود العـرب وأشـرافهـا وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائـه وطلبه بثـأر قومـه . فأتـاه وفد قريش ومنهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبـد شمس ، وأسد بن عبد العزى وعبـد الله بن جدعـان فقدمـوا عليه وهـو في قصر لـه يقال لـه غمدان فدخلوا فوجدوه متضمخـاً بالعنبـر وبيض المسك يلمـع في مفرق رأسه وعليه بردان اخضران قد ائتزر بأحدهمـا وارتدى بـالآخر وسيفـه بين يـديـه والملوك عن يمينـه وشمـالـه وعلى المنـابـر المقـاول . فـدنـا منـه عبد المطلب فقال له :

---

(١) الثاني ط لجنة التأليف بمصر ص ٢٣ .

« إن الله تعالى، أيها الملك ، احلك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً باذخاً شامخاً ، وانبتك منبتاً طابت أرومته وعزت جرثومته . ونبل أصله ، وبسق فرعه ، في اكرم معدن وأطيب موطن فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب ، وربيعها الذي به تخصب ، وملكها الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي اليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصنا اليك الذي ألهمك لكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة ، لا وفود المرزئة » .

فما هي لغة قريش حقاً . هل هي ضرب من الكلام العربي في غير ما حكى العرب . فلست أوثر الرجع الى ما فرط من بحوثنا المتقدمة في الكشكشات والوتمات والتضجع والتلتلة مما كان في لهجات وما بقي أثره حتى بعد الاسلام في لغات البدو والحضر الى أواخر العصر الرابع وما بعده وقد كان بعض علماء العربية يسمعون بقاء هذه اللهجات ويعجبون لها ان لم تغادر الأندلس فقد قال ابن جني في الخصائص[١] :

« حدثني أبو علي رحمه الله (يعني استاذه الفارسي) قال دخلت هيتا وأنا أريد الانحدار منها الى بغداد فسمعت أهلها ينطقون بفتحة غريبة لم اسمعها قبل ، فعجبت منها وأقمنا هناك أياماً الى أن صلح الطريق للمسير ، فإذا انني قد تكلمت مع القوم بها ، واظنه قال لي انني لما بعدت عنهم أنسيتها » .

وهذا المثال يصلح أيضاً لتجربة اجتماعية في فقه اللغة في تأثير اللهجة بالسامع حتى يدور بها لسانه من غير أن يشعر . أما ما جاء في هذا النص القرشي من مفردات فاننا نستطيع أن نخص بها قريشاً وحدها ولكنا إذا درسنا تركيب هذه المفردات بان لنا اسلوب انشائي الظاهر أنه

(١) ص ٩٥ ج ١ .

معروفٌ في كلام قريش وهو هذه الجمل المتابعة المتواقعة على المعنى الواحد . افتذكرون خطبة ابي بكر الصديق يا معشر الأنصار ان شئتم ان تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا وشاطرناكم في أموالنا ونصرناكم بأنفسنا . .

فان هذه الموافقة في الجمل على مقصد واحد - احدهما من مفاتيح النقد والمقابلة بين النصوص القرشية . وقول عبد المطلب لذي يزن: أبيت اللعن - طابع من طوابع الجاهلية العريقة في كلامهم يذكرني بأتاني ابيت اللعن عند النابغة الذبياني في اعتذارياته الى النعمان.

وكانت العلاقة بين قريش وسيف بن ذي يزن وثيقة ونستدل على ذلك من قصيدة مدح بها سيفاً أبو الصلت والد أمية بن أبي الصلت وأدل هذه القصيدة :

ليطلب الثأر امثال ابن ذي يزن　　لجج في البحر للأعداء احوالا

يصف فيها حرب ذي يزن مع هرقل ثم انثناءه الى حرب كسرى.

وله يقول في آخر القصيدة :

واشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا　　في رأس غمدان داراً منك محلالا

وإذا كان لنا ان ننفي ما ننفي من نصوص النثر والشعر في الجاهلية وان نتقبل مما يتصل بالتحقيق والتنقيب فلا نجد مجالاً لأفكار خطب من الجاهلية واخص هذه الخطب ما قاله اكثم بن صيفي أمام كسرى[1] :

« إن افضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وافضل الملوك أعمّها نفعاً وخير الأزمنة أخصبها وافضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء ، آفة الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، اصلاح فساد الرعية خير

(١) العقد الفريد طبعة لجنة التأليف بمصرج ٢ ص ١١ - ١٢ .

من اصلاح فساد الراعي ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البريء ، المرء يعجز لا المحالة ، افضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شر سماعه ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الايجاز ، من شدد نضر ، ومن تراخى تألف » .

وروح هذه الخطبة وعظ ووعيد ونصح وارشاد وكان اكثم من حكماء الجاهلية فهو يدعو لتقويم الأخلاق ولبناء الأمة على شرعة فضلى ومثل هذه الروح نراها شائعة في أعقاب معمية زهير ومثل هذه الآراء الأخلاقية في الوعظ والارشاد يشيع على الدوام في أدوار الأمم المنحلة والتي تشعر بانقلاب سياسي أو اجتماعي فقبل كل انقلاب في السياسة والاجتماع يخرج في الأمم واعظون ومرشدون تشيع في كلامهم مثل هذه الروح البانية المنددة بالفساد.

ودراسة المفردات اللغوية في هذه الخطبة الجاهلية تظهرنا على نسيج الخطب فهي في سهولة ظاهرة وسلامة من التعقيد الفكري وبعد عن الغرابة وليس لنا ان نستغرب هذا فقد كانت لغة الخطابة في الجاهلية غير لغة الشعر لأن الشعر كان يمثل قالته من الطبقة التي اختصت به وهو خاص وغير عام.

فإذا صحَّ أن يكون للشعر منزلة ارستقراطية فلست اتجوز كل التجوز ان اعده في هذه المنزلة لأني اجد الشعر الجاهلي معبراً عن روح الشعب عند فريق من الشعراء فالأعشى كان شعبياً وكذلك كان زهير، لكن الخطابة كانت شعبية النزعة لأنها قد فرض فيها التعميم فهي لكل الشعب وليست لطبقة منه وكان الخطيب في الجاهلية كما كان عند اليونان وفي العصور الغربية المتأخرة يطلب رجع اصدائه في أوساط الشعب قبل كل شيء.

فأكثم يتناول اشتات الجهات الشعبية في خطبته وهو وان خاطب بها كسرى لكنه اراد بها رفاهية الشعب فألفاظها ومفرداتها من الكلام المتداول السهل الذي يتداوله الشعب لا ينحصر في مفهوم الخاصة كالغريب من الألفاظ الذي قد يشيع في شعر الجاهلية وفي رجز الرجاز في الاسلام.

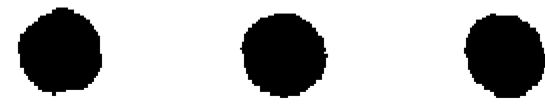
ويروي العقد فيما يروي من الخطب كلمات مختارة مختصرة المعاني خطبها الحارث بن ظالم امام قيصر وهي من روح الخطبة الصيفية الأكثمية ولنستطيع أن نعرضها على التحقيق ينبغي لنا التثبت من اجتماع الحارث بن ظالم بقيصر وقد كان الحارث هذا شديد القلق في حياته مصاباً بالكوارث وقد اختفى حيناً وظهر حيناً وخفق في البلاد وحوادثه كثيرة في اواخر الجاهلية ولو رجعتم الى خطبته هذه وقد ذكرها صاحب العقد الفريد[1] ومفرداتها سهلة شائعة وليس فيها غريب . وهذا كما قلت لكم كان شأن الخطب.

وختام هذه الدراسة المجملة للغة الجاهلية ولغة قريش تقتضي ان أتساءل أكانت لغة قريش قد سادت في عهد معين أم إنها وجدت وهي سائدة من غير أن نعرف السبيل الصحيح العلمي لسيادتها والذي أراه أن لغة قريش قد ظهرت سائدة قبيل الاسلام ولما نزل القرآن الكريم وأقبل العرب عليه جعل هذا الكوكب اللغوي الأعظم يشع في كل الجهات فعمت لغة قريش أرجاء العرب جميعاً وجعلت تشيع في كل مظاهر التعبير فوجدناها من شرفات الشعر في الاسلام ومنسابة في لغة المحادثة ودارجة في مجالس الأدب وحين جاء العصر العباسي الأول وظهر الشعر مجموعاً في دواوين املاها الرواة والجامعون واللغويون كما يحدثنا بذلك صاحب الفهرست وغيره، فنجد عالماً قرشياً يطلع علينا في لغته المنبثقة في كل نواحي العبارة وإذا لجأت العرب وسائر لغاتها تنحسر لتظل في

---

(١) ٢/١٨ ـ ١٩ .

بطون الكتب آثاراً ويظل منها القليل شائعاً على أطراف الألسنة وهو لم يلبث على توالي الزمان ان اتى عليه الترك والاهمال وبات تاريخاً لغوياً ضاع اصحابه بين سمع الأرض وبصرها وإذا لغة قريش تملأ الدنيا ولا تزال تملأها وما نحن اليوم بمتكلمين إلاَّ لغة قريش.



الفهـرس

الفصل الخامس : اللغة العربية واللهجات

الفصل السادس : اللغات السامية

الفصل السابع

الفصل الثامن



الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين